قصص قصيرة

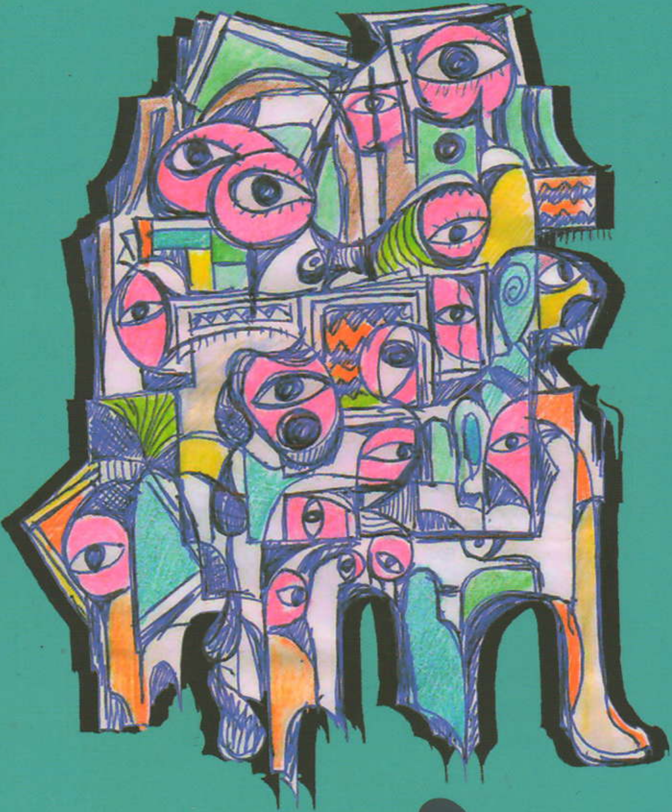

لعبة الصبر

محمد عبد حسن

IWAN PUBLISHING HOUSE
كيوان للطباعة والنشر والتوزيع

لعبة الصبر

الكتاب لعبة الصبر
المؤلف محمد عبد حسن
الناشر دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع
الاخراج: قاسم محمد علي الإسماعيل
ISBN 2-44-622-9933-473

الاتحاد العام للأدباء والكتاب في البصرة
union of Basrah Writers
اتحاد الادباء والكتاب في البصرة
Union of Basrah Writers

كيوان للطباعة والنشر والتوزيع
KIWAN PUBLISHING HOUSE

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved.Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2019

دار كيوان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ السويداء ـ مقابل المشفى الوطني
تلفاكس (+963) 16-211-260
kiwan.publishing@gmail.com - kiwan_house@yahoo.com
www.facebook.com/kiwanhouse

قصص قصيرة

لعبة الصبر

محمد عبد حسن

الخروج إلى الداخل

إلى : الشاعر .. محسن عبود

مشهد أول :

تستفيق. جسدك مشبع بالدفء.. وببقايا خدرٍ، يبدو لذيذًا الآن، أفقدك طوال أيام قدرتك على المشي. وقتها بدت الصحراء أمامك أضيق بكثير مما كنت تظن.. توشك السماء أن ترتطم برأسك فتنحني متحاشيًا رصاصًا لم يعد له وجود الآن. تحني رأسك، إذ لم يعد أمامك ما يغريك برفعه للتطلع إليه والتملّي منه.. تحاشيه إلى زقاق مظلم أو باب دارٍ مهجورة فتحها القدر إليك لتغيبَ فيها، يبتلعك ظلامها حتى تجد لحظة مناسبة للتسلل.. من دارٍ إلى دار، ومن سطح إلى سطح، يفتح الزقاق فمه فتخرج منه، إلى أين! تتشعب الطرق أمامك، تتداخل، مع ذلك.. فهي كلها تقودك إلى حتفك.. أو خلاصك.. لا تدري. سرتَ متشبثًا بالجدران، تركتَ عليها بصماتك.. وتركتْ عليك غبارها، ألوانها الباهتة، بقايا حجارتها التي بعثرتها القذائف، ومزّقها الرصاص. لو كان هناك مَنْ يتبعك لاهتدى إليك بسهولة، كانت أقدامك

ثقيلة.. تترك أثرًا عميقًا، ولجسدك رائحة لا يخطئها من دخل المدينة يومًا فاحتواه مقهىً منزوٍ في مكانٍ ما.. مرّ مرورًا عابرًا في سوق من أسواقها الكثيرة.. أمسكً بيده قصبة أو خيط صيد ومياه المد تتسلق ساقيه، أو ظللته نخلة بقيتْ عصية على (صاحب الزنج). ولمّا بدأت الصحراء تمدّ أذيالها إليك، بدأتَ تفقد، أنت نفسك، رائحتك تلك.. تحني رأسك لتجد أن أقدامك تترك أثرًا سرعان ما يملؤه الرمل. السماء كلها عيون تخترقك، تدينك، تشهد أنك لم تودّع أحدًا حتى أمك.

* * *

مشهد رابع :

وقت أن يتحدد عالمك بين أسلاك شائكة تحيطك.. وسرير من الحديد يقضم ظهرك.. تنتظم في طابور للحصول على أطعمة مغلّفة أصبح طعمها مرًّا في فمك، وقد يطول انتظارك، وقت الصبح بالذات، في طابور آخر لتفرغ أمعاءك المنتفخة.. وقت أن تصبح الصحراء، على سعتها، في عينيك أضيق من خرم إبرة.. وقتها، هل تظن أن شيئا سيسعك؟

فكرتُ بممارسة متعة قديمة. متكّأً كنتُ على العمود الحديد لرواق الخيمة. بدتْ الساحة أمامي خالية تمامًا، حتى الثلاثة الذين بقوا يتقاذفون الكرة أمام هدف يتيم..

حتى هؤلاء انسحبوا لمّا أنزلت السماء أول قطراتها. كان الوقت عصرًا. أحسستُ بالغيوم الرمادية الثقيلة تلامس رأسي، تطبق علي، أيقنتُ أنّ أول شروط متعتي يفرّ مني، ومع ذلك زررتُ معطفي، وبقيتُ أنتظر حتى مسح المطر كل شيء في الخارج، عندها خرجتُ، القطرات الأولى التي صفعتْ وجهي جعلتني أرتجف، ضغطتُ جسدي بساعديّ مبتعدًا إلى حيث لا أدري، ليس هناك بيت أقصده، أو مدرسة أنوي الوصول إليها، هذا لا يهم الآن، المهم أن يستوعب المطر رأسك.. يملأ عينيك.. يسيل على وجهك، وقتها ستسرق بعض القطرات المتعلقة بشفتيك.. تسرقها إلى داخل فمك المرّ دومًا.. ستعيد إليه طعم ماء السماء.. وإلى أنفك رائحة الأرض التي لا يشبهها شيء سوى رائحة أمك.

كنتُ أرتجف. درتُ حول المخيم بأكمله.. دخلتُ خيامه.. نفذ الماء عبر رقبة المعطف إلى جسدي، أغرق رقبتي فيما بدأت قطرات منه تفتح لها مسارًا ثلجيًا على ظهري المتصلب. الماء الذي ملأ فمي لم يكن بذاك الطعم الذي أعرفه، كما أنّ رائحة الأرض الغريبة عليّ أشعرتني بغربتي. أتذكر أني بقيتُ واقفًا.. منتظرًا علّ شيئًا من متعتي القديمة تلك يتسلل إلي من مكان ما. جاء شخص وقادني إلى الداخل. كل الأغطية التي وضعت فوقي لم تستطع منع جسدي من الارتجاف. أمام عينيّ.. يبدو سقف

الخيمة الأخضر الداكن مسوداً أكثر من قبل، كان المصباح المتدلي يرسم ظلًا باهتًا لعمود الخيمة المثّبت في الوسط.. ظلّاً ممتدًا من قاعدة العمود باتجاه سريري حيث يقطع جسدي فوق البطن متلاشياً عند حافة الرواق.

السرير الحديد، كعادته، يفتك بظهري. انقلبتُ لتواجهني عارضته التي تربط قائمتيه عند الرأس، فوقها حُفرتْ عبارة قرأتها بوضوح: ------- made in.. وقتها أدركت تماماً أين أنا. ودون أن أنتظر طويلًا.. أنزلتُ فراشي إلى الأرض.

* * *

مشهد ثانٍ :

هل يعقل أنك تهت.. أم أنه الصدأ الذي يأكل رأسك، فالمدينة لم تتغير كثيرًا. النهر ما زال يجري كما تركته. ها أنت تراه. صدّق إذن ما أخبرك به صديق حين كتبت إليه تسأله: أخبرني عن المدّ.. هل ما زال يصعد!؟ وقتها كنت قد بدأت تملّ البقاء في (رفحا)، الرمال المحيطة بك جعلت روحك تتصحّر، مذاقها في فمك يمحو جميع ما تخلفه فيه الأطعمة المعلبة التي تقدم لك. أخبرَني في رسالة قصيرة (أحسست وأنا أقرأها أن الرجل يغصب نفسه على الكتّابة لي، رسائله الأخيرة إلي بدأت تأتي مطبوعة مما أفقد عيني أُلفة رسم الحروف.. ثم انقطعتْ) وكانت الأخيرة:

«المدّ يصعد يوميًّا بشكل غريب، يُغرق الشوارع.. الأرصفة، يدخل البيوت، جذوع الأشجار أصبحت سوداء هشّة.. إنها بوادر (طوفانك) الذي تحدّثتَ عنه يومًا.. هل تذكر؟!»

كان طوفان الرمل يحيطك، ينفذ إلى كل شيء.. حقيبتك الوحيدة، جيوب بذلتك، حذائك، يملأ عينيك.. أذنيك.. يمتدّ إلى حيث يصل بصرك. يبدو النهار ثقيلًا.. طويلًا.. يبعث على اليأس.. موحشًا، تغتاله تلك الوجوه الصفر التي تحرسك، تخترق عيونها جسدك، تعرّيك، تحاصرك، تحيطك من كل جانب، تمنعك من الاقتراب حتى من السور لترسل بصرك إلى حيث يغيّب الأفق أرضًا تركتها.. تحاول الإمساك برائحتها فلا تستطيع، تحسّها قريبة من منخريك فتعبّ الهواء عبّاً علّك تصطادها، يمتلأ أنفك بالرمل.. وعيناك بصورة رجل أشقر يمضغ لبانًا وهو يشير إليك بطرف عصًا يحملها بيده.. أن ابتعد.. فتبتعد.

* * *

مشهد خامس :

كعادتها كل ليلة.. تشرب المدينة الليل الهابط من السماء ثم تلفظه مرة أخرى ليسيل عبر شوارعها الرئيسة إلى الأزقة التي تبدو أكثر عتمة من غيرها حتى في ساعات الظهر. كان الشارع الرئيس المحاذي للنهر، والذي أصبح خلفي الآن حيث تركته

مجتازًا الجسر الحديد إلى الجزء القديم من السوق، يغرق في مستنقعات باهتة من ضوء ترسله المصابيح المثبتة في نهاية الذراع الممتدة من العمود الحديد المزروع على الرصيف. أمامي ينفتح فم ضيق لزقاق مازال يغرق، كما تركته، في ظلام أزلي حيث يكشف النور الهارب عبر النوافذ الخشب بعضًا من ملامحه.. في الوسط خيط من مياه، تبدو سوداء الآن، تنساب باتجاه الشط تاركة، على طول الزقاق الممتد أمامي، بركًا صغيرة تصنعها قطع أحجار أو خرق تسد مجرى الماء حيث تبدو كأورام مبعثرة على جانبي الساقية وبالذات عند نقط التقائها مع سواق صغيرة تنتهي بداياتها أسفل جدران طابوقية مغلّفة بالملح.. مزروعة بالنوافذ.. وبأبواب واطئة يتسلل الضوء عبر الشقوق المنتشرة على صفحاتها متخللة المسافات الموزعة بانتظام بين الذيول الكبيرة الصدئة لمسامير حديد ترصّع صفحة الباب.

انعطفتُ إلى اليمين.. كانت الجدران تمتص بقايا الضوء المتسلل عبر النوافذ ومن تحت الأبواب فتبدو الطريق أكثر عتمة. كنتُ أعرف إلى أين أتجه. كلّ تلك السنين لم تفلح في شطب هذه الأزقة من رأسك، عمود النور البعيد ما زال مكانه، وباب (الحسينية) مقفل كما اعتاد أن يكون في مثل هذا الوقت. (ستجتاز عمود النور فيواجهك باب (الحسينية)، تنعطف يسارًا.. ثم تطرق الباب الرابعة على اليمين. سأكتب لك شيئًا. هي

لا تقرأ.. أعرف ذلك، ولكن.. ولكن مجرد شيء يصلها من ابن غائب. لا أدري كيف تعيش.. كيف تُدبر أمورها هناك! أقصد أمورها الأخرى.. فوضعها المادي أنا متكفّلٌ به).

كلّ شيء يمتص صوت ارتطام المطرقة الحديد المثبتة وسط الباب بذيل مسمار كبير يواجه رأس المطرقة تمامًا. حولي.. تبدو بعض حزم الضوء متحصّنة عند حافات النوافذ ملقية على الزقاق كآبة فاضحة تكشف وحشة المكان.. تبتلع الأرض.. تتسلّق الجدران مبتعدة عن تلك المساحات الضيقة التي يحرسها الضوء لتتلاشى هناك.. في الأعلى حيث ينتظم صف طويل من شناشيل من الخشب معتمة كليًّا. وسط صمت كهذا كنت، فقط، أسمع تنفسي.. وذلك الشيء الذي يملأ أذني فيعطي للسكون صوتًا خاصًا. كانت يدي تمسك رأس المطرقة لمّا بدأتُ أسمع صوت نعل يُسحب، يزداد الصوت وضوحًا، يتوقف، لابد أنها وصلتْ. جملة أصوات لا تعني إلا شيئًا واحدًا وهو أنها تحاول فتح الباب. (ستفتحه لك.. ستفتحه). وإذ بدأت ضلفة الباب تنسحب إلى الداخل مصدرة صوتًا بدد وحشة المكان، أطلَّ وجه شدتني إليه ألفة غريبة مع أني أراه للمرة الأولى.

* * *

مشهد ثالث :

«من مكان ما أكتب إليك، أما الزمن.. فلا أعرف عنه أكثر من كون الشمس تجاوزتْ رأسي بقليل. بعدها بساعات أنهض تاركًا مقعدي هذا لمتسـول تنشـقّ عنه الأرض فينتصب أمامي بمجرد أن يرخي الظلام ستارًا يحول دون رؤيتي للبوابة الصغيرة هناك.. في الطرف البعيد من هذا المتنزه الذي أعرف فيه فقط بوابته تلك ومقعده.. هذا الذي أجلس فوقه. إذن فنحن، أنا وهو، نتقاسم هذا المقعد، أنا أحتلّه نهارًا.. وهو يقضي عليه ليلته. أما كيف وصلتُ إلى هنا.. فتلك قصة طويلة. ولو جئتَ أنت أيضًا إلى هنا لوجدتك بعد أشهر فوق هذا المقعد ذاته.. أو فوق واحد آخر منزوٍ في مكان ما.. مختفيًا خلف أشجار كثيفة أو دورة مياه مهجورة في ركن منعزل.

أتذكرك.. عندما يهبط الليل في (رفحا)، ومع الليل تتقد الذاكرة.. تشتعل، حتى أنني كنت أرى رأسك وكأنه كرة ملتهبة. هل تذكر لمّا قدتك ووضعتُ رأسك تحت صنبور ماء في ليلة شتائية زرقاء لأطفئه؟ كنتَ وحدكَ.. تنسحب بهدوء إلى فراشكَ، يغيّب الغطاء الداكن جسدك فيما تبقى عيناك مرسلة باتجاه الحلقات القليلة المتناثرة وسط فوضى الأمتعة والأسرّة التي يعاد ترتيبها كل ليلة بشكل يجعل الرؤوس قريبة إلى بعضها ليستمر الهمس حتى ساعة متأخرة، ومن فوق سريركَ كنت ترى كل شيء..

وتسمع بوضوح. وإذ يبدأ رجل جنوبي في الزاوية البعيدة، تحجبه عنك سحب دخان كثيف، برفع صوته:

(چنت أظن سِدره بظهاري الگيظ تچويني الشمس وأگعد إبفيكُم وچنت أَعد ربعي التنشّف دمعي .. أول ما أعدكم

يا جَهَلكم .. يا جَهَلكم يا ربع مثقال خَربط كل غزِلكم)

تتجه الأبصار إليه، تنفض الحلقات.. تتشتت باتجاه الزاوية البعيدة حيث الرجل يسند ظهره إلى عمود من الحديد وحوله تتشكل دوائر عديدة من أجساد متراصة يحملها صوته إلى هناك.. كل شيءٍ أقرب إلى النفس من أي شيء آخر. (إنها مرارة الفقد).. قلتُ لك.. (نعم.. إنها مرارة الفقد. تخيّل لو أن كل من هؤلاء كان بعيدًا عن هذه الصحراء السافلة، يحتويه الآن سرير دافئ، يحتضن جسدًا بضًّا أمام نافذة تطل على البحر أو على شارع واسع يمتلأ ليلًا بأضواء ملونة، تلتهمه مدن واسعة.. صاخبة، هل تظنّه سيجد متسعًا من الوقت لغناء مأساوي كهذا؟) صامتًا كنتَ.. تسمعني بوضوح وعيونك معلقة بالرجل. (إنه يرثي نفسه).. قلتَ لي.. (يوبخها، وستدرك بنفسك كل ذلك. ستذهب إلى هناك، تحتويك المدن المضاءة التي تحلم بها، ترى البحر، تضاجع النساء الشقر حتى تشبع، تمارس حريتك، كما تقول، فوق أسرّة وثيرة.. وسط حدائق لا يحتويها بصرك، بعد كل ذلك ستدرك كم أنت وحيد ومهجور بعد أن تزول لحظات

انبهارك الأولى، وقتها تفهم تمامًا أنّ المدينة ليست مدينتك، الشوارع ليست لك، الحدائق رُتّبت لغيرك، لا تستطيع أن تترك أثرًا في مكان ما.. لن تجد فوق أجساد كل شقراواتك اللواتي تحلم بهنّ.. لن تجد مكانًا فارغًا لتضع فيه حتى بصمة إبهامك. كل ما تفكر به الآن سيتحول إلى ثقل ينوء تحته جسدك، لا تستطيع أن تعبّ الهواء إلى صدرك إلا في الأماكن المظلمة.. عندما تكون وحيدًا.. منزويًا فوق مقعدٍ في مكان ما.. مختفيًا خلف أشجار كثيفة أو دورة مياه مهجورةً في ركن منعزل).

نزغني المتسول فاستفقت. تمدد الليل مبتلعًا كل الأشياء حولي. تبدو الحديقة فارغة تمامًا.. موحشة أكثر من أي وقت آخر، تلقي المصابيح البيضاء الموزعة في أماكن متباعدة حزمًا من ضوء تضيع بين جذوع الأشجار المعمّرة وأغصانها المتشابكة لتتلاشى فوق المقاعد الخشب المتناثرة حولي والتي تبدو فارغة جميعها عدا مقعد هناك أسفل الضوء تمامًا حيث تبدو العجوز المتكورة فوقه كتمثال صدئ يحرسه كلب يبسط ذراعيه متحفزًا أمام قدميها.

يشير لي المتسول بعينين منطفئتين.. أن اذهب. سأحمل أوراقي.. وأذهب. ربما أكمل رسالتي هذه لك في مكان آخر، وقد لا أكملها فأرسلها إليك هكذا.. كما هي الآن.. لا أدري بالضبط.»

* * *

ما قبل المشهد الأول :

إنّ للأمهات في بلدنا وجهًا واحدًا.. هل تدرك ذلك!؟

تراجع الباب إلى الداخل ليكشف عن جسد ذابل يسبح في السواد. الضوء الهارب من مصباحٍ وحيد مصلوب على عمود من خشب وسط الدار يلقي عليّ ظلًا باهتًا للجسد المتشبث بإحدى يديه بضلفة الباب فيما يده الأخرى تستند إلى القائمة الخشب لإطاره. يتسلق الظل الدرجات الثلاثة حيث أقف في الخارج مطلًّا من علٍ على وجه قرصي محتم بمساحة ظلٍ وبِـ (فوطة) سوداء تكمل مع الوجه استدارة كاملةً متجاوزة هامة الرأس إلى صفحته لتثّبّتَ بِـ (چلّاب) نحاسي مسود قريبًا من الأذن.

نزلتُ إلى الدار متتبّعًا زحف قدميّ المرأة إلى وسطها، وهناك.. تحت العمود الخشب الحامل للمصباح وضع كرسي من حديد، كانت ذراعها تشير إليه فجلستُ وجلستْ هي فوق سرير من الخشب مغطى بحصائر من القصب تسحب أنفاسًا متسارعة أشعرتني بالخجل. كانت تفرد كفّها اليمنى فوق صدرها فيما يدها الأخرى مستندة إلى السرير خلفها قليلًا. هربتُ ببصري عنها إلى ما يكشفه الضوء: بابان موصدان وثالث موارب على عتمة تبتلع كلّ شيء في الداخل ممتدة إلى عتبة الباب حيث يرسم الضوء مثلّثًا بقاعدة قصيرة وساقين طويلتين فوق بساط

صوفي ويمتد رأسه إلى الداخل غائبًا في مكان لا أراه. كانت الباحة نظيفة مغسولة بضوء يكشف الحفر الكثيرة المنتشرة على الأرض الطابوقية. في الزاوية البعيدة كهف مظلم تبدو منه فقط الدرجات المتآكلة لسلم يوصل، على ما يبدو، إلى السطح.

- هل انتهيت!؟

كانت يداها مشبوكتين بحجرها، ثم حوّلتْ بصرها عنّي إلى العمود الخشب المنتصب وسط الدار.

- أنا ......

- أعرف ذلك. ها أنت ترى.. كل شيء ما زال كما تركه. كثيرون قبلك جاءوا، جلسوا مكانك هنا، تحدّثوا إليّ عنه وكأني لا أعرفه، وكانوا يذهبون دون أنّ يدركوا أن لي صدرًا يكاد ينفجر. أنا أمه.. أعرفه أكثر من أي أحد آخر، عاش معي ثلاثين عامًا.. هنا.. في هذه الدار. هاتِ يدك وتعال معي. تحمّل ثرثرة عجوز خرفة لا تجد مَنْ تكلّمه.. وربّما ستموت في مكان ما من هذه الدار دون أن ينتبه إليها أحد.. أو يقرأ لها سورة (يس) وهي تحتضر. فوق هذا الطابوق، حيث تسير أنت الآن، تعلّم المشي، هنا أوقفته مرة.. وجلستُ أمامه هكذا، كما أنت الآن، فاردة ذراعيّ لاستقباله. ساعِدْني على النهوض ما دمتَ موجودا قربي، أما عندما أكون وحدي فسيكون الأمر شاقًا، أضع

راحتيّ أولًا على الأرض ثم أرفع وسطي ويبقى رأسي متدليًا إلى أسفل، بعدها أسند إحدى راحتيّ إلى ركبتي، ثم أتبعها بالأخرى، ثمّ عليّ تحمّل ألم يشلّ الظهر قبل أن أقف. اتبعني إلى غرفته. هذه باحة الدار كما تراها أمامك، أعرفها شبرًا شبرًا، أستطيع أن أريك أين سقط.. أين بال.. وأين ترك برازه مرات عدة. صوت صرير الباب يدفع الوحشة عن النفس في دار ساكنة كالقبر، ولذلك فأنا لا أزيّته. سيكشف لك الضوء كل شيء فيها. ها.. هل رأيت الآن؟ هذا سريره، أرتّبه يوميًا مع أن أحدًا لم يستخدمه منذ أن نام فيه ليلته الأخيرة وخرج قبل أن يفتح الصبح عيونه، أبدّل الشراشف.. أنشرها في الشمس، أغيّر أوجه الوسائد في مواعيدها، أكنس الأرض، أمسح الطاولة، ألمّع الزجاج، أنظّف الخزانة. كتبه.. تخلّصتُ منها. ثيابه.. أغسلها بمواعيدها، أنقع (البياضات) في طست.. والملونة في طست آخر، لو فتحت الخزانة لوجدتها كلها نظيفة، مصفوفة في أماكنها حيث اعتاد أن يجدها. بدلته الوحيدة غلّفتها بكيس نايلون كبير كي لا يصل إليها التراب.. يريدها أن تبقى معلقة. هل تدرك أية سكين تقطع كبد أم مثلي وهي تعيد يوميا ترتيب غرفة أبن لن يعود؟! قدني إلى الخارج. أشعر أنني سأقع. لا أدري لماذا تصرّون، جميعكم، على المجيء في الليل وكأنّ للنهار عيونًا تطاردكم! لا أدري. ها أنت ترى أنه لم يغب عنّي كي يأتي إليّ مَنْ يحدّثني عنه. أترك يدي الآن، فقد ألِفَ هذا السرير ثقل جسدي. بعد

قليل سأصبح أحسن حالًا. ولكن أخبرني: لماذا عدتَ؟!

في الخارج.. كلّ شيء غارق في عتمة مطبقة. كلّ نافذة أجتازها تصرخ خلفي: لماذا عدت. يصل الصوت إليّ من تحت الأبواب.. عبر الجدران المتآكلة.. يهبط من السماء.. ينبع من الأرض. أطبق راحتيّ على أذنيّ راكضًا باتجاه الشارع الرئيس علَّ ضوضاء المدينة تبعده عني.. هل ستبعده حقاً؟.[1]

كانون ثانٍ – نيسان ، 2001 م

ليبيا

---

١) العنوان مستقى من قصيدة للشاعر العراقي (محسن عبود): تأشيرة دخول إلى خارج العمر؛ منشورة في ديوان يحمل عنوانها.

صباحات شاحبة

إلى / معين الخضر

حين يغفو.. تلقي كل آلات تصويره المدثرة منذ عقود بأردية بيضاء وجد فوقها الغبار المتساقط من سقف الغرفة المغطى بـ (بواري) القصب وأعمدة (الجندل).. وجد له مكانًا آمنًا لفترات طويلة قبل أن تبدأ صحوها المتأخر حين يغفو هو.. تلقي أرديتها ناثرة غبارًا لا يطول تحليقه في فضاء الغرفة طويلا حتى يجد له مستقرًّا على أطر الصور الكثيرة المنتشرة على الجدران.. الأرض.. أو على المقعد الخشب الوحيد المزروع أمام طاولة صغيرة يقبع خلفها على الدوام بشعره الهارب من هامة رأسه نحو الجانبين متعمّدًا إخفاء ساقي النظارة السوداء الطويلتين الممتدتين خلف أذنيه، في حين يتربع جسدها الطويل على نهاية أنفه حتى خيل إلي، في المرات العديدة التي جلست فيها أمامه، أنه سيهوي فوق الطاولة التي تشغل، مع المقعد الذي أجلس فوقه، كل المساحة المتبقية من فضاء عالمه.

كل شيء له رائحة الماضي وعبقه. لا تكاد تتيه قليلا حتى

توقظك (ساعة سورين) بدقاتها، وليس بعيدا عنها تجد قفّة عائمة وسط النهر فيما يحاول شخص يقف وسطها وبيده مجذاف طويل مغالبة التيار الجارف ليوصلها إلى ضفة النهر الأخرى وعيون الجالسين فيها معلقة باتجاهات شتى. شناشيل كثيرة آيلة للسقوط. فيما تبدو وسط الجدار المواجه لطاولته صورة كبيرة لشيخ بعمامة بيضاء يريح ذقنه فوق يديه المتعانقتين على الطرف المعكوف لعصًا يستقر طرفها الآخر بين قدميه بينما تخفي عباءته الواسعة كل الكرسي الخشب الذي يجلس فوقه تاركة ذراعيه الصقيلتين تبدوان بوضوح على جانبي الجسد، فيبدو الشيخ وكأنه أسد رابض متحفز للوثوب.

- الشيخ يشبهك كثيرًا. ولكنه أكثر عافية منك.

- هذه الصورة التقطها له مصور أرمني. كنت أسير معه عبر أزقة العشّار، أحمل أمامه الفانوس إلى مقبرة (أم البروم) حين يكون هناك من يجب أن يُدفن ليلًا. أتذكر أننا مررنا مرة أمام محل تصويره، وكان، على ما يبدو، ينتظر هذا المرور، فاقتنص الشيخ وحمله إلى الداخل. وبعد أيام وجدنا صورة كبيرة كهذه في واجهة محله.

خلف كرسيه الأسود ذي المسند المرتفع ستارة حائلة اللون، يزيحها.. فتبدو آلات تصوير عديدة منصوبة متحفزة، عيونها تتطلع إلى كل مكان. واحدة منها فقط كان يستخدمها لالتقاط

صور شخصية لزبائنه القليلين. عدد من مصابيح إضاءة بأحجام مختلفة أنارها الواحد تلو الآخر ناقلًا ذاك هنا وهذا هناك، وكنت جالسًا أمامه.. يتلقى وجهي صفعات الضوء المتلاحقة فأقارب جفني. وبعد أن أمال رأسي قليلًا رافعًا ذقني إلى الأعلى ذهب ليقف خلف آلة تصويره.. فحبست أنفاسي.

- لا تتحرك. إفتح عينيك فقط، وإن استطعت أن تبتسم فافعل، أم ستكون من زبائني الذين لا يبتسمون. حسن. بإمكانك النهوض الآن.

- ....

- هل ترى آلات التصوير هذه، ابتعتها كلها، وها هي.. لم ترفع عنها أغطيتها منذ أن نصبت هنا. عقود طويلة وأنا أحلم أن أهبط بها إلى الشوارع، أنصبها في الساحات، أأرخ بها للنخل، ألتقط بها رائحة المدّ، ولكن.............، ولكن النهار جاء متأخرًا كعادته. رائحة المدّ هجرته. وهي أيضًا... لم تعد تنفع في شيء غير أن توضع في متحف لا أظن أنّ أحدًا يُفكر في فتح مثله هنا.

ثم يتركني ويغيب داخل غرفته المعتمة. أبقى وحيدًا متطلعًا إلى (البريد القديم)، إلى منطقة (الداكير) كما لم أرها من قبل، مدخل (شركة المزالق) حيث الباب الزجاج الدوّار الذي تركني أبي مرّات عديدة ألهو بدورانه في حين يغيب هو

لبعض الوقت في الداخل. أمامي صورة لباب ضيّق، يفتح في جدار قديم، يقود إلى سلّم لا أتبين نهايته، أهبطه لأضيع وسط ضجة السوق ونداءات الباعة وصراخات الصبية المندفعين كـ (الطناطل) عبر ستائر القماش الملونة المدلاة على أفواه الأبواب المشرعة دومًا.

هو الآن هناك، لا يبعد كثيرا عن عالمه القديم. لم أجد صعوبة في التعرف عليه رغم غياب ذاكرتي وصدئها. قادني، عبر الأزقة ذاتها، إلى محل صغير (للطباعة والاستنساخ).. هذا ما كُتب على واجهته الزجاجية المغبرة. دخلت معه إلى زاويته الخلفية.

- أنا هنا الآن! هل ترى؟

المصباح الوحيد المتدلي من السقف يرسل ضوءً شاحباً تمتصه موجودات الغرفة المبعثرة: أطر الصور المسندة إلى بعضها البعض، كرسيه الأسود ذو المسند المرتفع، الطاولة ذاتها.. وقد تداخلت الصور الموضوعة تحتها هاربة من الغبار الزاحف عبر شرخ كبير متعرج يتوسط سطح الزجاج الذي لم يعد لامعا. وليس بعيدا عن السرير الحديد القابع خلف الباب ينتصب مشجب ألقي عليه معطفه الثقيل فبدا نحيلًا أكثر من أي وقت مضى ساحبًا قدمين ثقيلتين إلى السرير الذي صرّ تحت ثقل جسده.

- ربما سأنام قليلًا. إذا أردت الخروج فاخرج. أنت تعرف

الطريق. وليس مهمًّا أن توصد الباب خلفك.

أراح رأسه على الوسادة. أمامه، على فسحة ضيقة من الجدار تتسع بالكاد لجزء من الصورة التي بقي بعضها خارجا، صورة الشيخ محتفظا برأسه فوق يديه المحتضنتين لطرف العصا المعكوف. وجدته بالفعل يشبهه.

- الشيخ يشبهك كثيرًا. يبدو أكثر عافية منك.

ولكنه لم يجبني. كان قد غاب. عندها ألقتْ آلات تصويره الموزعة في أرجاء الغرفة أغطيتها وبدأت تعملٍ. إحداها تنشر، فوق خرقة بيضاء مسمرة على ظهر الباب، صورا متتابعة. رأيته.. ورأيت أشخاصًا كثيرين لا أعرف بعضهم، أماكن قد أكون رأيتها، ربما، إنّ لها صورًا غير تلك المرسومة في ذهني. لم أستطع متابعة الصور الزاحفة بجنون فأغلقت عيني. قد أكون غفوت فوق المسطبة الخشب المواجهة للباب، ربما. نظرت إليه. ما زال غائبًا. أمامي.. كانت حركة الصور قد تباطأت. فُتح الباب بعد أن طُرق مرّات عدة. دخل شخصان أعرف أحدهما، ناديته: (قصيّ).. فالتفتَ إليّ. أردتُ النهوض لمعانقته فأوقفني بإشارة من يده: "أنت ككل الأشياء الرائعة.. تجيء حين تنتفي الحاجة إليها. ابقَ حيث أنت". فبقيت حيث أنا، وبقيا يتفحصان موجودات الغرفة قليلًا ثم خرجا.

آخر شيء رأيته فوق قطعة القماش المسمرة على ظهر الباب كان سريرًا خاليًا.. وشخصًا يجلس على أريكة من خشب بمواجهة الباب تمامًا. بعدها انتهى العرض، ولكنّ أزيز آلات التصوير لم يهدأ. (ربما يبدأ مرة أخرى). هكذا ظننتُ، فجلستُ متحفّزًا.. لاصقًا عينيّ بقطعة القماش بانتظار أن يبدأ العرض من جديد.

مايس - حزيران 2008 م

إجدابيا / ليبيا

ذاكرة من زجاج

صباح ليس كالصباحات الأخرى. يوم له رائحته. أجلس وحيدًا في الغرفة الصغيرة الملاصقة للبوابة الكبيرة عند المدخل الرئيس. أمامي تمتد العارضة الحديدية مجتازة الطريق ليستقر رأسها عند الأخرى المضطجعة فوق الطريق القادم من الجهة المقابلة. الغرفة أمامي فارغة. على جانبي الشارع، الممتد إلى الداخل، صفّان من أشجار عالية تغيّب كل شيء في الداخل. كنتُ وحدي. عيوني تلتصق بالواجهة الزجاجية المضببة. في الخارج.. كلّ شيء ساكن سكون الموتى،/أعلم بما حصل هناك.. في المدن البعيدة، تسللتْ الأنباء إلى أذني، تنقّلتْ بحذر بين أروقة المباني الضخمة. غابتْ بعض الوجوه، أصبحنا نراها لحظات خاطفة.. قلقة. وعندما عدت ذات ليلة لم أجد المذياع الصغير الذي كنت أحتفظ به تحت وسادتي/، أفتقدُ زقزقة العصافير في مثل هذا الوقت من الصباح. فتحت النافذة. أنعشني الهواء الداخل. بقايا رطوبة الليلة الماضية تتلامع على إسفلت الشارع.

كنت وحدي. وكان كل شيء في الخارج ساكنًا.. سكون الموتى.

* * *

لستُ منسلخًا من عالم آخر. لستُ هجينًا. ما زالت الطقوس محفورة بذاكرتي. سأحدثك كي تُصدّق، أريك الأشياء التي أحتفظ بها في الغرفة العليا: «المشامر» الخضر، أعمدة الخيام، القدور النحاسيّة المسودّة، «الصنوج»، السيوف.. بقي منها سيف واحد.. صدىء . كانت أشياءَ ورثتها عن أبي، أوصاني بها. عندما مات، بعتُ الخيل كي أتمكن من دفنه وأوفي ما بقي من ديونه. نقلت أشياءه إلى الغرفة العليا، أعدتها إلى صناديقها بعد أن زهد بها كل من تفحّصها. فقط بعت السيوف، قماش الخيام، وذاكرتي.. بعتها، نسيتها، بصراحة أقول لك: خبأتها تحت المنبر، ما زال قائمًا في غرفتها، تُلبسه السواد في اليوم العاشر. لم يشترِه أحد. خافوا. قال لي شيخ لا أعرفه.. أو ربّما كنت أعرفه.. قال لي: إتق الله يا رجل، احفظه في بيتك للبركة. عدت به مع بعض الأشياء الأخرى. أردت تهشيمه، تحويله إلى منضدة.. سرير يصدّ عني رطوبة الأرض الطينية التي تلتهم ظهري ليلاً. كان الشتاء يقترب. أتذكر البيت الطيني.. الأماكن التي ترشح بمجرد أن يبول قطّ على السطح. اشتريت تراباً وتبناً. «لطشت» «خمرته». السطح. رصفت البيت بطابوق «فرشي». وكانت تراقبني صامتة.

تنقل المنبر من ركن لآخر. استقر أخيراً في غرفتها. رفضتْ أن أحوله الى سرير، فتركته لها.. وتركت ذاكرتي تحته.

* * *

(شاهت الوجوه)، قال لي.. ثم حوَّل بصره عني. أدار لي ظهره. تحوّلت لأجثم أمامه. سيدي. كان مطرقاً. تخفي استدارة عمامته السوداء وجهه. مولاي. رفع رأسه إلي. كان وجهه مضيئاً. خلف نظارته.. لمحتُ عيونه تترقرق. (ماذا تريدني أن أقول لك)؟ جسر النظارة الممتد فوق أنفه أصبح مبتلاً. تسربتْ قطرات من تحته، سالتْ على خديه. رفع نظارته. جفف وجنتيه بكفه. (ماذا كنتَ تنتظر)؟! /أنتظر المطر. كنت أقف عارياً. السماء مثقلة بالغيوم. كانت تهبط. وكنت أرقبها.. عارياً. ستموت.. تتجمد. تظنني مجنوناً. أريد أن أغتسل، قلت لها. القذارة تغلّفني. السماء، وحدها، قادرة على تطهيري.. رفع قذارتي. كانت تحدثني دون أن تنظر إلي، فهي لم ترني عارياً منذ أن فصلتُ فراشي عن فراشها. أنتظر المطر. انتظرت. ولكنه لم يسقط. سأبقى قذراً. ارتديت ثيابي وخرجت. وسمعتها خلفي تتمتم بشيء ما قبل أن ترشق «طاسة» مائها المعتادة لتضمن عودتي/./ عدتُ حاملا ما تبقى من ماضٍ. كنت أريد محوه لأنطلق. ألقيته وسط الدار. أفرغت محتوياتِ الكيس. لم

يكن كيساً واحداً. ظهرت القدور النحاسية السود، قطع قماش خضراء.. حمراء.. بيضاء متسخة. تفحصتها. كانت جالسة على درجة المنبر السفلى تنظر إليّ.. صامتة كعادتها. صمتها يأكلني. تريدني أن أكمل طريقه، أسير على هداه. وكنت أبحث عن بداية أخرى.. هناك، في مدن لا يخفي «السواد» حيطانها. أي هاجس كنت تعيشه؟! عن أي انطلاق تبحث!؟ (انطلق.. إنطلق إذا أحببت. يمكنك أن تبتعد. ولكن ذاكرتك ستبقى.. ستبقى تتذكر). أتذكر التفاصيل. أراه واقفًا بقامته المديدة رافعاً طرف «دشداشته» بحزامه، طاويًا سرواله تحت ركبتيه.. ينضح عرقًا، يستقبل الجموع السود، الصدور التي ألهبتها الأكف. كانت تلك هي اللحظات الأولى، ولادة شرعية.. كأن تجد نفسك في حضن أمك. كنت أجد نفسي تحت المنبر، أو قريباً منه. أحمل معها «القصائد»، ترتّبها بعناية قبل أن تخرج: تفرش قطعة قماش سوداء.. أو خضراء، تفرشها على الأرض، تبدأ بوضع الكتب، الكتاب الكبير أولاً.. «الفخري».. كانت تسميه. تصفّحته يومًا. قرأتُ بذات النغمة التي أسمعها كل ليلة، في الحقيقة لم أكن أقرأ، كنت أحفظ الخبر، أسمعه أولًا في بيتنا، ثم في أربعة مآتم أخرى.. فأحفظه. تضعه أولًا. فوقه ترتّب القصائد بعد أن تكون قد قضتْ وقتًا لتحديد ما ستقرؤه، تضع علاماتها.. قطع خضر، أعواد ثقاب، أوراق بيض، تُنهي كل شيء. تربطها ربطتين متقاطعتين. تنهض. أقفز معها حاملاً الكتب. أركض. أسبقها.

أعرف الطرق، الأزقة، الأبواب الواطئة، الباحات المفروشة، وأعرف مكانها. أقصده. أضع الكتب حيث تريد وأجلس منتظراً على درجة المنبر الأولى/.

* * *

بقايا ليل تهرب إلى الزوايا، تتشبّثُ بالأجساد الهاجعة محاولة الاختباء في الفسحات الضيقة بين الأرجل المثنية والمتداخلة بشكل يصعب ترتيبه في أفضل حالات الصحو. ذيول مسامير كثيرة تطل من الجدران منذ الأزل. يقظًا كنتُ ، كعادتي، في مثل هذا الوقت، عندما دخل القاعة. كان يطأ، بحذائه الثقيل، الأرجل المتشابكة. صرخ. كنت أول من نهض.. أول من غيّر ثيابه.. أول من ركض خارجًا.. أول شخص في الطابور.. أول من حمل سلاحًا.. أول من هرول باتجاه المباني الضخمة.. وأول من وصل. أمرني رجل أبرص، جسده يسدّ مدخل الباب الكبير، أمرني أن أدخل، دخلت عبر الفسحة الصغيرة الضيقة بين جسده وإطار الباب إلى ممر ثلجي مضاء يقود إلى قاعة واسعة أدهشني كل شيء فيها: بلاط برّاق.. ثريات مذهبة تتدلى من السقف.. نقوش تؤطر الجدران.. تمتد في الزوايا.. أرائك واسعة من خشب لم أر مثله.. لا أعرف نوعه.. الأبواب.. بيض كبيرة تصل إلى السقف.. كرسي واحد يبدو مختلفًا عن كل ما

حوله.. مسنده مرتفع، أعلى من الأرائك الأخرى. (أنت)!؟ وخزني أحدهم بعصاه. (ما بك)؟ كنت مشدوهًا.. مسحورًا بكل ما حولي. إنها المرة الأولى التي أدخل فيها هذه القاعة. كنت أقضي فترات حراستي عند البوابة الرئيسة.. على السور الجانبي المواجه للنهر.. أو هناك: حول مجموعة المباني المتلاصقة التي لم أر أحدًا يدخل اليها أو يخرج منها يومًا. (أنت)؟! رأس عصاه بين أضلعي. انتبهتُ. كان هناك خمسة آخرون يتوزعون في القاعة. أشار بعصاه إلى مكان ما: فركضت إليه.

* * *

سأحدثك، أروي لك التفاصيل، أنقل لك المشاهد كما رأيتها وأنا هناك.. في الركن الذي أشار إليه الأبرص بعصاه، واقفًا، يطوف بصري في زوايا القاعة، غائبًا.. في المدن البعيدة، ألتقط أنباءها بحذر، أعيد رسم خرائطها.. الشوارع.. الساحات.. النهر ما زال يجري كما تركته، وسيبقى، وستبقى أنت مزروعًا في رحم أخرى، لا توفر لك الدفء. مدينتك، كانت تضمّك.. تشدك بقوة إلى صدرها كما كانت أمك تشدّك، لقد تركتها هناك، لم ترها منذ أشهر، إنها الحرب وتوقف الإجازات.. الواجبات المستمرة ليل نهار. يقتلك القلق عليها، أين ستختبئ؟ ستطأها الأحذية الثقيلة، يمزقها الرصاص كأي جسد آخر.

عرفت أن الساحات ممتلئة بالجثث، يحرسها القوّادون نهاراً.. والكلاب ليلاً. لقد انطفأ كل شيء. عادت الوجوه الحمر إلى سابق عهدها، تركت لثامها./ وتركتها أنت هناك، تبعث لها في كل شهر، مع أي شخص عابر، ما تنفقه، وكانت تدخره لك، وتنفق لا أدري من أين، سألتُها يومًا فسكتتْ، ولم أُلحِ. كانت الحقيبة معلقة بكتفي، نخرجتُ/. كان الوقت عصرا. في الخارج أنيرتْ المصابيح في وقتها المحدد، وكانت الشمس المعلقة في القاعة الكبيرة تغسل كل شيء، /إقرأ.. قال لي. كان يومي الأول. سكتُّ. بقي ينظر إليّ. إقرأ. فقرأت، ولكن .../، تسرق احمرار الوجوه، تجعلها صفراً.. خائبة. تفحصتها، وأنا أقف في ركني محتضناً بندقيتي، وجهًا وجهًا، إن وجهي، أنا الآخر، لا يختلف عن هذه الوجوه.. أصفر مقزز. شددت البندقية إلى جسدي. بدأت الوجوه تتكاثر، الأجساد تتبعثر في القاعة الواسعة. كان بصري مصلوبًا على البوابة الكبيرة. رأيته يدخل، يجرّ قدميه. كومة مشعثة. الكتل التي تحيطه معتمة، ترفعه من إبطيه، /كنت أراه، يأتون به محمولاً، يوقفونه في مصلاه. يقف. تتركه الأيدي. يبقى واقفاً. أترقب سقوطه. أتابعه. ينحني. يسجد. ثم ينهض مرة أخرى.. وحده. أحدهم قال لي: الملائكة ترفعه/، تدفعه إليه. واقفًا كان يُحدثه. أراقب شفتيه، /إقرأ.. قال لي، فقرأت/، لا أدري بماذا كان يجيبه، جعله يغلي، يرتعد، وكان هو ساكنًا. شفتاه تتحركان. ثم ......

سقطت عمامته السوداء عن رأسه. رأيتهم يتكاثرون، يلتفون حوله. كانت البندقية معي، ممتلئة، ثقيلة. خاويًا كنت.. تافهًا. أصغُر. أنكمش. أنكمش. تحوّلتُ إلى لفافة صغيرة تقبع في ركنٍ مهمل. جاء الأبرص فركلني. تدحرجتُ إلى الخارج. أدركتُ بعدها أنني الوحيد الذي بقي. كان الجميع خارجًا. كنت أحلم. هكذا أنا.. أحلم كثيرًا. وكانت أمي توقظني. تحملني من فراشي. أنام جنبها. ألتصق بها هربًا من الكلب الأسود الذي رأيته أمس.. وطاردني اليوم.. وسأحلم به غدًا.. سأحلم به. كلب أجرب، تخفي قذارة رمادية نصفه الأسفل وقوائمه الخمس، ينهض إذ يراني، يركض إليّ على أرجله الأربعة، يشير إليِ بالخامسة، أركض وهو خلفي، أركض، أترك نعليّ/أنت أضعت الكثير من النعل، كل أسبوع أشتري لك واحدًا جديدًا، لا أدري ماذا تفعل بها ! هل تأكلها؟!/ كنت آكلها فعلًا، أخلعه من قدمي وأعطيه للرجل الذي يدسّه فوراً في كيس قماش يحمله على أحد جنبي دراجته، ويخرج لي من الكيس الآخر كومة «حلاوة» يلفّها لي بورقة، آخذها منه راكضًا، أتلذذ بها هناك.. تحت المنبر/. /وحيدًا. أرفع طرف القماش. أمامي مجموعة كتل سود، جالسة. أمي وحدها واقفة تقرأ/. إختر لك نعالًا جديدًا. اخترته بلون رمادي، لا يشبه لون «الحلاوة» التي يعطينيها الرجل/، أمسك ذيل «دشداشتي» بأسناني. أركض. يصل إليّ. تمسكني رجله الخامسة. (أريد أن آكلك)، قال لي،

(من زمان ما أكلتك). بعد أن ركلني الأبرص خرجتُ. وبقي هو في الداخل. لا أعرف ما حدث له بالضبط. لم أرَ أحدًا يضربه، ولا رأيت عمامته سقطتْ عن رأسه. أحدهم قال لي ذلك. كنت خارجًا. أحمل بندقيتي الممتلئة. أراهم بوضوح. من تحت المنبر بإمكانك رؤية كل شيء.. العالم كله، بمجرد أن ترفع طرف القماش الأسود.

سأحدثك، أروي لك التفاصيل، أنقل لك المشاهد كما رأيتها وأنا هناك.. في الركن الذي أشار إليه الأبرص بعصاه، واقفًا، يطوف بصري في زوايا القاعة، غائبًا ....

تشرين الأول – كانون الأول / ١٩٩٦

الأردن

طائر الرماد

ـ أخرج، أصلحك الله، إلى الكوفة.

وناولني رقاعًا حاول جاهدًا أن يتم كتابته قبل أن يذوي لسان آخر مصباح بقي مشتعلًا في البصرة حين حلّ بها القحط.

ـ واصل ليلك بنهارك، ونهارك بليلك، وإن عجز جوادك عن اللّحاق بك فاتركه، واخترْ لك في كل مرة جوادًا ينهب الأرض بقوائمه حتى يوصلك إلى (جمجمة العرب) وَ (رمح الله) قبل أن تنفد رماحنا، وتتحطم جماجمنا. سرْ على بركة الله.

أسرجتُ جوادي متذكرًا ذاك الذي خرج قبلي وهو يسرج فرسه. كنتُ وسط حشد متلهف يلصق عيونه بالرجل.. وبركاب فرسه وعنانها المتدلي إلى الأرض.

ـ سننتظرك. نرجو أن لا تبتلعك الأرض، أو تتيه في سكك الكوفة وشوارعها كالذي خرج قبلك.

لم يتكلم الرجل. فقط أصلح من وضع فرسه وانطلق مخلّفًا حشدًا يستنشق بقايا غبار أثاره عدْوها.

كنتُ ثالث القوم. العيون، هذه المرة، متعلقة بي، تتفحص جوادي، زادي القليل الذي أحمله. تركتُ كل شيء متجهًا إلى طفلي الوحيد لأشمّه، ربما لن أراه مرة أخرى.. لا أدري. الطريق إلى الكوفة تبدو غائمة أمامي، أنا الذي خبر الصحراء، وعرف الأرض من رائحة ترابها.

أيقظتني يدان: الأولى على كتفي فيما تمد لي الأخرى عنان الجواد:

ـ هل تراني أقدم لك فرس منيتك؟!

ينعقد لساني. الآن فقط أدرك لِمَ لمْ يتكلم الإثنان اللذان خرجا قبلي وهما يغادران. أتطلع إلى الحشد واضعًا قدمي في الركاب لأستوي على ظهر الجواد. لم أكن قد ابتعدت كثيرًا حين جاءني صوتها:

ـ تذكّر أنّ لك أهلاً هنا.. طفلًا ينتظرك أن تعود.

* * *

ليس في البصرة وحدها حلَّ القحط. إنه يسبقني حيث أسير. والطريق إلى الكوفة لم تكن يوماً بكل هذا الطول.

تضطرب الحكايات في رأسك، أنت الضارب جوادك إلى هذا التيه، حكايات الذين خرجوا إلى الكوفة ولم يعودوا. هل وصلوا إلى هناك؟ للصحراء أسرارها. كل مَنْ تقف عنده يودع حكاية في رأسك، وكتّابًا في خرجك. كلهم أرسلوا وفودًا إلى هناك وما زالوا ينتظرون عودتهم. كلّ يقول لك وهو يجاري خبب جوادك البطيء قبل أنْ تحمله الريح:

ـ إسأل عنه في كل نزل الكوفة، الغرباء يعرف بعضهم بعضًا، قل له إنّنا ما زلنا ننتظر.

يقلقك الرجاء الذي ترسله العيون، وجوه النساء الذابلات.. أشباح الأطفال الشاحبين.. الرجال المكتوون بألم العجز والانتظار. عن أيّ الأسماء ستسأل! وأيها ستترك؟ هذا إذا وصلت.. عليك أن تصل أولًا.

* * *

ـ سيوصلك النهر إلى الكوفة إن أنت بقيت بجانبه. لا تسحرنّك الصحراء بأعمدة الضياء التي تستطيل فيها، أو مساحات

الضوء التي تتراءى لك. كل ذلك سيختفي بمجرد أن يحتويك الظلام وتتشابه عليك النجوم. أنت ابن الصحراء.. هذا صحيح، ولكن الأمور هذه المرة تختلف، لقد خلّفت مدينتك والقحط يقضمها من كل جانب، وها أنت ترى أننا هنا ننتظره، نعرف أنه سيصل ولا نفعل شيئًا سوى أن نضع رسالة استغاثة في خرج جوادك الممتلئ. أقولها لك مرة أخرى: لا تسحرنّك الصحراء. إبقَ بجانب النهر، فهو يرويك إذا ظمئت، ويرشدك إذا تهت، وستجد عنده من يؤويك.. يؤمّن لك شيئاً قد تحتاج إليه في طريقك، وربما يحمّلك رسالة أخرى لتوصلها معك. هذه وصيتي لك. سرْ على بركة الله.

وصفع الجواد بيده لينطلق.

* * *

أخيرًا ستكتحل عيناك بضياء المشاعل والقناديل الموقدة على أبوابها. ها هي تتراءى لك، تبدد عنك وحشة الطريق، وتغسل ما عليك من وعثاء السفر.

أتركُ النهر ميمّمًا صوب الضوء المنبثق من كبد الصحراء. يتضح أمامي هيكل بوابة مشرعة وأشباح تتحرك قريبًا منها لا تفلح المشاعل المضاءة، على كثرتها، في الكشف عنها بوضوح. وإذ

أقترب أكثر يتبين لي أنهم الجند الذين يحرسون مداخل المدينة ليلًا.

ـ قِفْ. من أي البلاد أنت؟ وماذا تحمل معك؟

ـ من البصرة.. أنا من البصرة، وأحمل معي كتابًا من واليها مستغيثًا الخليفة من قحط هاجمها حتى أتى عليها.

ـ قلتَ القحط؟

ـ هو ما سمعت.

ـ أنّى للقحط أن يجد طريقه إلى البصرة !

ـ كما أقول لكم. وليست البصرة وحدها، كل مكان أصل إليه يحمّلني رسالة إلى الخليفة حتى امتلأ خرجي كما ترون.

ـ لا نصدّقك. ولكن لا ضير من دخولك والبحث عمّن لديه الوقت لقراءة كل هذا الذي تحمله.

دخلتُ الكوفة فإذا أنا بمدينة أذهبَ ليلها ضوء المشاعل والقناديل المسرجة فبدت طرقها واسعة، وأزقتها منارة، فوق كل باب مشعل يتراقص لهبه، وقنديل يمد لسانه. هل يعقل هذا! ربما أكون قد أضعت الطريق، واستهزأ بي الجند. استوقفت أحدًا مرَّ قريبًا مني لأسأله:

ـ هل هذه هي الكوفة ؟!

ـ نعم هي. وأنت وسط حارة السقائين.

قلت في سرّي: إذا كانت حارة السقائين هكذا فكيف هي حارة الأشراف وكبار قوّاد الجند! ثمّ سألته:

ـ وفي أي مكان منها تقع دار الخلافة ؟

ـ تبدو غريبا !؟

ـ نعم. فأنا من البصرة .

ـ وكيف تركتها ؟ لي ابن عمّ هناك .

ـ تركتها تصارع القحط لتبقى .

ـ ماذا !

ـ لم تقل لي أين دار الخلافة ؟

ـ إنها هناك . أترى المكان الأشدّ إضاءة ذاك.. إنها دار الخلافة.

تركته مفكرًا: كيف لعينيّ أمير المؤمنين أن تبصرا كل هذا الضوء في حين تكون فيه البصرة قد أطفأت آخر قناديلها منذ زمن؟!

يقودني الضوء، ومعه تتضح لي المعالم، الطرق المرصوفة بالحجر،

الأبواب بأقواسها العالية وخشبها المزخرف، تتغير حتى أشكال القناديل ومحامل المشاعل، لباس الناس، وضحكات المارة وهمس الواقفين على رؤوس الأزقة. استوقفني أحدهم:

ـ أين تريد ؟

ـ أريد دار الخلافة .

ـ لا يحق لك المرور من هنا. جد لك طريقًا آخر.

ـ ولكن ....

ـ هذا الزقاق سيوصلك. لا أدري كيف سُمح لك بسحب جوادك إلى هنا. هيّا اذهب.

وذهبتُ. أحوم حول الدار ولا أصلها. تشرئب عنقي إلى الضوء. يسلمني زقاق إلى زقاق، ويدفعني رجل إلى رجل، حتى قادتني درب ضيّقة دُفعتُ إليها إلى ساحة يغيب عنها الضوء، وتضيع حولها معالم الأشياء. وقفتُ لأستريح.. وأرى أين أصبحتُ عن كتلة الضوء المشعة وسط المدينة، وإذا بأنفاس رجل تخالط أنفاسي:

ـ تعال معي .

ـ إلى أين ؟!

ـ إلى حيث تريد أن تسلّم بريدك .

تركتُ جوادي للرجل يقوده، وأنا خلفه، إلى أزقة ينسحب منها الضوء ليسدل سُتُرًا كثيفة على أبوابها الواطئة وكواها الضيقة. ولمّا أصبحتُ أبصر بصعوبة قال لي: تمسّك بي لئلا تضيع. فتعلقت بطرف ثوبه، وأتْبَعْتُ خطوتي خطوته. وإذ وقف وقفت:

ـ سلّم على أميرك .

إنتبهت إلى رجل جاثم وسط الصحراء، رفع رأسه إليّ قائلًا: (كيف لعينيّ أمير المؤمنين أن تبصرا كل هذا الضوء في حين تكون فيه البصرة قد أطفأت آخر قناديلها منذ زمن)؟ ثمّ قال لي:

ـ هات بريدك. وقل لأهل البصرة، ولكل من حمّلك بريدًا: إن إمامكم قد اكتفى من طعامه بقرصيه، ومن ثيابه بطمريه. وعجّل بالخروج من الكوفة لئلا تفتنك أضواؤها، وتستهويك أزقتها ونزلها، فتتيه كما تاه من أرسل قبلك. واسلك طريق الصحراء، ستجد في كل مكان تطأه عمود نور يسبق قدميك ليلًا، وظلًّا وارفًا يدعوك إليه نهارًا. هذا طريقك فاسلكه، ولا تحط رحلك إلا في ديارك.

أمـامي، حيث أشار، عمود نور ينبثق من الأرض ممتداً حيث يدرك بصري. جهّزني الرجل الذي قادني بصرّة قال إن فيها

القليل من الزاد. لكزت جوادي متتّبعًا عمود النور.. آملًا أن لا تكون البصرة، كما كانت الكوفة، بعيدة.

أيلول – 2009 م / كانون الثاني – 2010 م

إجدابيا – ليبيا

لعبة الصبر

(لعبة الصبر القديمة في يديّ تحطمتْ)

- حسب الشيخ جعفر -

ما زال في العمر متسع للجنون.. مكان آخر بعيدًا عن صفيحتكَ الصدئـة هذه، أنتَ أكثر صدأ منها.. هل تدرك ذلك؟ نعم تدركه، وتدرك أنّه لولا دخولك المتكرر للحمام لكنت الآن شيئًا آخر.. كومة صدأ بني أغمق لونًا من الصفيحة التي أمامك.. وجهك ممتلئ بالحفر.. أخاديد شقتها عصا الرجل الذي بدأ يشيخ، كانت تصلك وأنت في أبعد زاوية في الصف الأخير، يقول لك: إقرأ.. فتقرأ.. وتبقى تقرأ حتى تستقر عصاه فوق رأسك. يضربك مرة أخرى فيهبط رأسك، ينحني جذعك كله حتى تستقر جبهتك فوق ساعديك المضمومتين على الصفيحة، لقد حَمَلْتها معها إلى (طرمبة السبيل)، قبل ذلك راقبتها وهي تفرغ الدهن في واحدة أخرى كبيرة اعتادت أن تحفظها في زاوية ميتة خلف باب المطبخ تمامًا.

في اليوم الأول.. ألبستني، في الصباح، (دشداشة) بيضاء ترتفع كثيرًا فوق كاحلي، (لاطية) أبي المتهرئة.. رافتها بعناية ثم وضعتها

فوق رأسي، تبعتها حافيًا، وعند باب بيت الرجل أخرجتْ لي، من تحت عباءتها، نعلًا جديدًا رصاصيّ اللون ضاعت قدميّ فيه، إنّه كبير.. قلت لها، «أحسن. ستكبر قدمك سريعًا»، وكبرت قدمي أسرع مما كنت أظن، ضاق النعل، تمزّقتْ أوصاله، وكنت أربطها مستخدمًا أسلاكًا رفيعة أجدها عندما يرسلني الرجل لأحضر له شيئًا أو يجيء دوري في تنظيف الدار.. داره، وقتها يترك مكانه الأثير، خلف المسند الخشب الحامل للمصحف، بين الوسائد الخضر.. ويتبعني بعصاه، يشير إلى الزوايا المعتمة، فرش الأرض القصبية، هنا.. ارفعْ هذا.. نظّفْ.. اكنسْ جيدًا، وهو، بين كلّ ذلك، يرفع صوته بجنون محافظًا على نسق قراءته، وهم يرددون خلفه وكأنه ما زال متربعًا أمامهم، وكنت أردد معهم متتبعًا رأس عصاه حاملًا إبريق الماء النحاسي وكفي ترتجف بشدة تحت عنق فوّهته الطويل، «إياك أن تحوّل الأرض طيناً». حوّلتها يومًا متعمّدًا، فركلني حتى تعب، بعدها ألقاني في الطريق ورماني بالصفيحة، بقيتُ دقائق.. جسدي يشرب، بلذّة، برودة تراب الزقاق الذي لم تصله الشمس بعد. كنت أتفحّص الصفيحة، أبحث عن جسدها اللّماع الذي كان يبرق عندما غسلتها أمي تحت (طرمبة السبيل).. تركتْ الماء ينساب داخلها، اختفت بقايا السمن. «ستحملها معك. تضعها أمامك، وفوقها تضع (جزء عمّ)، وتحفظه بداخلها عندما تعود، فهمت؟» كانت تستقرّ أمامي مطعّجة صدئة، ضربتها بالأرض فانفصلت

عن وجهها الداخلي طبقة صدأ رقيقة. في اليوم التالي حملتها بيدي، وكانت أمي تمسك يدي الأخرى.. وتتدلى من يدها الثانية دجاجة بيضاء سمينة. قبِلها الرجل، ثم قبِلني. عدتُ إلى مكاني.. الزاوية البعيدة في الصف الأخير. قرأتُ معهم أولا، بعدها تهتُ حتى انتفض جسدي عندما استقرتْ عصاه فوق هامتي.

* * *

«صباح الخير ملا». بدأ شاربك يسود، صوتك يغلظ، وكان الرجل قد بدأ يشيخ، ينطوي. عبارته القديمة تثقل، تتطاير أحرفها، متقطّعة، من فمه، تصل إلى أذنيك. ربّما لم يعد يقول شيئاً، فقط يرفع رأسه إليك، ومرة أخرى تقول: «صباح الخير ملا»، فيصلك الصوت أثيريًّا.. واضحًا هذه المرة: (لا صبّحك، لا ربّحك، تخدم سبع سنين ما لك بخت)، نقشها برأسك. سبع سنين وأذناك تمتصانها يومياً. تطاردك نظرات الصبية، إنك أطولهم قامةً، ومع ذلك تلملم نفسك نجلًا خلف صفيحتك.

اضطررتُ للحضور مبكرًا كلّ صباح قبل أي أحد آخر، أمتصّ عبارته وحدي، أشهد فطوره، أجمع حاجياته، أُنظف الدار، أملأ الزير ماءً، أجلس خلف صفيحتي قبل أن يحضروا.

سبع سنين حفرت فيها مكانًا لي على الأرض الطينية، بعدها

طردني الرجل: «لم يعد لك مكان هنا. أصبحتَ رجلًا، أنظر إلى شاربك. سبع سنين وأنت لم تختم (جزء عمّ)، لم يعد لك مكان هنا».

خرجتُ وحدي. كان جالسًا، لا يستطيع النهوض، بين وسائده الخضر الباهتة. أشار إلى الباب بعصاه. خرجت. لم أنظر خلفي. عند النهر.. كوّمتُ ثيابي على الضفة، قرصتني أولًا برودة الماء، بعد لحظات اعتدت عليه، عمتُ على ظهري تاركًا تيار المد يحملني، بدت السماء أمامي زرقاء واسعة، أفقًا آخر.. أرحب كثيرًا من دار الرجل.. ودارنا.. أسقف قصبية واطئة، حيطان حبلى بشكل غريب. كان النهر يحملني بحنوٍّ أبوي. قبل أن أصل دعامات جسر المدينة القديم عدتُ، كان الماء قد لامس كُم (دشداشتي) المتدلي. لبستها وانطلقتُ.

* * *

تركت المدينة خلفي. غابتْ عن ناظريّ. كنتُ أستعيد الصور في رأسي، أجترّها ثم ألقيها بين أرجل الحمار الذي يحملني. (سأحملك).. قال لي الرجل، (أنت ترى أن ليس معي ما أحملك عليه غير هذا الحمار، وما دمتَ لا تملك شيئاً تدفعه لي.. ستساعدني في إدخال البضاعة إلى الخان، ماذا تقول؟). وافقتُ. كان الحمار هزيلًا، تحت حوافره تركت كل شيء: المدينة.. النهر.. الصبية الآخرين.. غابات النخل.. أعتاب البيوت المرشوشة

بالماء عصرًا.. الأنهر الصغيرة التي كنّا نتسلى بالقفز فوقها.. الكهول المنحوتين تحت سقيفة القصب قرب عمود الكهرباء المنير ليلاً، وجودهم الدائم هناك منعنا من الاقتراب منه والتصويب على مصباحه بدقّة، لم تستطع حَصانا التهامه فبقي وحده يضيء.. (الملا) الغارق بين وسائد خضرٍ ممزقة، حنكه الطويل المستقر فوق كفيه المضمومتين على رأس عصًا صغيرة نابتة في حجره.. النساء المتجمعات عند (طرمبة السبيل). (لقد أصبحتَ كبيرًا، ألا تنظر إلى نفسك؟ النساء أصبحن يتحرّجن من وجودك. عندما نصل، ضع (الصينية) على الأرض وانصرف. سأعود وحدي). كنت أحملها على رأسي ممتلئة بأوانٍ وصحون وأشياء أخرى وضعتها أمي فيها بعد أن وضعت فوق رأسي خرقة لفّتها بشكل عمامة صغيرة، أتبعها محاذيًا صف البيوت القصبية، على يساري تمتد تلك البركة الأزلية الآسنة. أقفز فوق مجاري المياه الممتدة من البيوت إلى البركة، طقطقة الأواني تجعل أمي تلتفت: (حاذر أن يقع شيء). لا أذكر أنّ شيئًا وقع منّي يومًا، إلا أنني، وأنا أحمل بضاعة الرجل إلى داخل الخان، أحسستُ أنّ قواي تخونني، كنت مرهقًا، ظهري يكاد ينقطع بعد أن أخذ منه ظهر الحمار مأخذه. وكان الرجل ينظر إليّ، يراقبني محذرًا: «هذه الصناديق مملوءة بالزجاجيات، وما دمتَ مرهقًا إلى هذا الحدّ سنتركها هنا الليلة إلى الغد ثم تحملها إلى الغرفة هناك. ارتح الآن».

تركني. كانت البضاعة مكوّمة وسط الخان. وكنت، أنا الآخر، مكوّماً فوق أحد الصناديق الخشب، حولي تتوزع غرف الخان الموصدة بأبواب خشب عالية منقوشة بتشكيلات بارزة تتكرر، بذات التتابع، على جميع ضلف الأبواب؛ فيما تحتلّ نافذة من الزجاج تقسّمها شرائح خشب تمتدّ بشكل شعاعي من منتصف ضلع النافذة الأسفل باتجاه زواياها العليا. نافذة فوق كل باب. في الركن البعيد المظلم سلّم، حجري يقود إلى الطابق الأعلى. هذا فقط ما رأيته في الليلة الأولى قبل أن أغفو. في الصباح وجدت جسدي قرب صندوق خشبي، وكان ساعدي الأيمن، المطوي تحت رأسي، متخشباً. استيقظتُ قبل أن يحضر الرجل حاملاً إليّ شيئاً التهمته قبل أن أعرف ما هو بالضبط، بعدها بدأتُ بحمل البضاعة وتوزيعها على الغرف كما يريد. صناديق الزجاجيات إلى هذه الغرفة. هذه الرزم.. أقمشة حريرية وقطنية.. إلى الغرفة هناك.. يمين السلم. عطور.. توابل.. جلود مدبوغة.. أكياس ممتلئة بذوراً.. ثياب يمانية.. خيوط من الحرير.. النايلون.. حبال من القنّب، أشياء كثيرة وزعتها على الغرف، وهو يتبعني: ضع هذه هنا.. وهذه هناك، انتبه لقارورة العطر الكبيرة، هذه الجرة مملوءة بماء الورد، أخرى بماء النعناع، أضعها على الأرض بعناية، أنتهي من توزيع البضائع على الغرف، أوصد الأبواب، وأنظف ساحة الخان.

«ما رأيك أن تبقى معي»؟ إنّها المرة الأولى التي أراه فيها بوضوح. كان ضوء الشمس يفترش نصف ساحة الخان المرصوفة بطابوق فرشيّ متآكل زاحفًا ببطء غير ملحوظ باتجاه قدميه. طوال الطريق كنت خلفه، أتبعه فوق حمار منهك، أزرع عيوني في ظهره. في اللحظات القليلة التي كلّمته فيها كي يحملني.. لم أنتبه لخصوصية ملامحه، كنت أبحث فيه عن الوجوه التي أعرفها، وقد أعطاني ظهره قبل أن أجد فيه بعضًا ممّن أعرفهم. كان ضوء الشمس قد التهم قدميه، بدت الأخاديد حول عينيه أكثر عمقًا منها في الصباح. وأنا أنظف الساحة، ساحة الخان، كان قد أعدّ (نارجيلته) جالسًا فوق كرسي خشب بمسند ظهر مرتفع عارضته، التي يستريح عليها الساعد الأيسر، مكسورة. اختلط صوت قرقرة (النارجيلة) بخشخشة المكنسة على الأرض الطابوقية، فيما كان الدخان الأبيض يرتفع بأشكالٍ هجينة منبعجة باتجاهات شتى متلاشيًا بين ذرات الغبار السابحة في ضوء الشمس الذي أكمل التهام قدمي الرجل متسلّقًا ساقيه.

(ماذا قلت)؟ أقول إنها سبع عجاف أخرى قضيتها متنقلًا بين الخان، حيث أسكن، وحانوت الرجل وسط المدينة، أحمل البضائع، أملأ القوارير بالعطر، أرتّب الجرار، أكنس الخان.. أمام الحانوت.. أرشّه بالماء كل صباح، (الماء يجلب الرزق)، ويجلب العصا على رأسي، (أي عصا)؟ عصا الرجل، أنت لا

تعرفه، ولم تسمع عنه، أما أنا.. فأعرفه أكثر من أي شيء آخر، ما زالت عبارته محفورة بذاكرتي، لم أستطع انتزاعها.. نسيانها، ونسيانه هو: بقايا رجل تسنده وسائد خضر باهتة، دعك منه الآن. أين أضع هذه؟ تلك؟ أتتبع إشارته، أزيح التراب المزمن عن الرفوف.. عن البضائع المكدسة بفوضى في مؤخرة حانوته خلف ستارة قماش سميكة تتدلى من السقف. ما تصنع بكل هذه؟! (هذه بضاعة الحرب).. أجابني.. ثم أضاف: (لقد تغيرت أذواق الناس، أنت لا تدرك ذلك، فقد كنتَ طفلًا عندما اندلعت الحرب. امتلأت المدينة بالجنود، بالعربات المصفّحة، عجلات كثيرة كانت تقف قرب الشط لتغلّف بالطين، وجوه ذابلة.. سلع ملونة.. أجساد هزيلة.. أشياء كثيرة تأتي من مدن بعيدة.. عيون ضائعة تحت طبقات الملح والبارود، تدخل المدينة ليلًا، وتتركها في الصباح، قد يعودون مرة أخرى مشيًا أو محمولين.. وقد لا يعودون. تخيّل مدينة كهذه.. تمتلئ فجأة بأشياء غير مألوفة، كثيرة وغريبة. غير أنّ أحدًا لم ينتبه لتوسع المقابر، بدأت تضيق، هدمت أسوارها، تمددت كأورام خبيثة ملتهمة جسد الأرض البكر، شُيّدت فيها القباب، الغرف، الأقفاص الحديد، فُتحت فيها شوارع جديدة.. هل تتصور ذلك! كانت المدينة ترقص بصخب، وتدفن موتاها بهدوء. لم يعد أحد يفكر بكل ذلك الآن، إنّ لنا قدرة عجيبة على النسيان.. نسيان كل شيء، وتذكّر كل شيء عندما يمتلئ الرأس خمرًا.. شايًا ثقيلًا..

دخانًا معسّلًا).

رتّبتُ كلّ شيء خلف الستارة. كنتُ أبقى حتى ساعة متأخرة محاولًا إعادة تنظيم سنين من الفوضى. نجحتُ في عزل الكثير من الزجاجيات.. صحون كبيرة، قوارير برؤوس مستدقة، أشياء مهشّمة، أقمشة ممزقة، أشياء لم أرها من قبل. رتّبتُ كلّ شيء. وكان يراقبني حاملًا معي، من زاوية لأخرى، عدة أكياس من القماش مشدودة الرؤوس، واحد منها فقط كان مفتوحًا، وجدته ممتلئًا باللّعب، أخرجتُ واحدة منها أتفحصها. (إنها «لعبة الصبر»).. قال لي: الشيء الوحيد الذي ما زال مطلوبًا منذ أن بدأت الحرب وحتى الآن، أبتاعها من مدينة منسية.. بعيدًا عن المكان الذي التقيتك فيه مسيرة ثلاثة أيام بلياليها، أمّا هم.. فلا أدري من أين يأتون بها، أظنهم يصنعونها بأيديهم، أحدهم أخبرني أنهم يجدونها مرمية في المدينة كل صباح فيتسابقون إلى جمعها، إنهم لا يتركون غريبًا يبيت عندهم، فمدينتهم تفتح أبوابها ضحىً، وقبل المغيب بساعات يشيعون جميع الغرباء بصحبة حراس يوصلونهم خارج حدود المدينة. إنّ نصف أرباحي هو من بيع هذه اللعب، كل الذين تراهم يأتون إلى المتجر يأتون في الحقيقة من أجلها، بعضهم يطلبها مباشرة، فيما يخاف آخرون مع أنها ليست ممنوعة. أمّا أنا.. فلا أعطيها إلا للذي يلحُّ في طلبها، لا أريد أن أدخل في خطيئة أحد.. كما يقولون.

إلا أنه دخل في خطيئتي إذ تركني أسرق واحدة، وعلّمني، صباح اليوم التالي، كيف أضعها في حجري وأنظر في عينيها وأنا أتحدث، كلّ ذلك بعد سبع عجاف، وبعد أعوام فيها أُغيث الناس وفيها عصروا . أعصر الدمية كل ليلة محاولًا منع انتفاخها الذي يحلّ عقدة لساني، يسجر بركانًا تحت ذاكرتي، يوقدها فتشتعل.. تشتعل بأكملها دون أن يحترق منها شيء! تنتفخ اللعبة بين يدي. حدثتها عن أمي.. الوجه المؤطر دائماً بفوطة سوداء محمرّة.. كالحة. كانت متعة، بالنسبة لي، أن أذهب معها، وكان همّاً، بالنسبة لها، أن تقف طوال الصباح وحتى الظهر في طابور سرعان ما يتشتت بظهور شرطي كهل عند بوابة المركز المختفي أسفل جسر عالٍ يقود إلى مركز المدينة، أتشبّث بظلّها.. وبذيل العباءة الشاحبة، انتفخي.. تنفّسي بعمق كما كنت أفعل لمّا تحتويني ساحة الموقف بعد لحظات تبلغ فيها القلوب الحناجر. أتابع تمدد بطن الدمية.. تفتّقها عند منطقة السرة.. فأمسك، أترك ذلك لليلة أخرى، وقت أكون فيه وحيدًا، أتأكد من قفل الباب بالترباس، أوصد النوافذ عدا الكوة الهزيلة المفتوحة على فضاء السلّم، أتركها كي لا أختنق.. وتختنق معي لعبتي. (أصبحتَ صامتاً أكثر من قبل).

كان محقًا. إذ كنت أجد متعتي في الحديث، فقط، مع اللعبة، بغير ذلك.. تصبح الذاكرة مرجلًا يغلي.. تقترب لحظة انفجاره،

وقتها أترك المتجر راكضًا إلى غرفتي في الخان، أضع اللعبة بين يدي وأبدأ، تنقطع أنفاسي، أتركها تنقلب، تمدد أمامي كبالون منتفخ يوشك أن يطير، هل هي حقـاً (لعبة الصبر) التي سرقتها يومًا وأخفيتها تحت (دشداشتي)! (هي بعينها، هذه اللعبة التي تراها، ......)، كان، وهو يحدثني، يقلّب واحدة بين كفيه، (تكبر بشكل غريب يصعب تصديقه، تمتص جميع ما في جوفك وتحتفظ به، هذا سرُّ إقبال الناس عليها، أنت تدري أن الحروب.. الاختفاء المفاجئ للكثير من الأشخاص.. الأزمات المستمرة من عهود سحيقة.. الجوع الذي شبع وسمن في أجساد الكثيرين.. كل هذه وأشياء أخرى غيرها جعلت صدور الناس تنتفخ، بعضهم يتنفس فقط عندما يضع اللعبة أمامه). هكذا أصبحتُ. لم يعد حضني يتسع لها فأجلسها أمامي، بطنها المنتفخ يصطدم بصدري. رأسي يختنق بما أريد تقيؤه أمامها، وكذلك صدري. أبدأ.. لا أدري من أين. المهم أن تبدأ، ثم تترك ذاكرتك تنساب.. أو تتدفق بعنف عبر المنافذ المتاحة. لم تعد للعبة قدرتها الأولى على الامتصاص، ما أتقيؤه يفرش أرض الغرفة، يغيّب البساط.. الطابوق الفرشي المنخور، يزحف على الدمية. الشق الذي ظهر قبل ليال عند السرّة يتمدد طوليًا للأسفل والأعلى، أحس لزوجة سائل ساخن يلامس صدري ويتخثّر بسرعة، أتمنى لو أستطيع السكوت، إلا أنّ لساني يتحرك، أطبق فكيّ فيخرج الصوت من عينيّ.. أذنيّ.. منخريّ. كان

الشق قد بدأ يخترق عنق اللعبة، السائل ما زال متدفقًا.. سرعان ما يتخثر على جسدي، عندها أدركتُ أن الوقت قد فات ولم يعد ممكنًا قضاء ليلة أخرى مع (لعبة الصبر). فلأستمر إذن.

* * *

كنت أعلم أنه، ككلّ الذين جاءوا قبله، سيسرق واحدة من (لعب الصبر)، ولمّا فعل.. قررت خصم ثمنها من أجرته المستحقة نهاية الشهر.

بدأتُ أراقبه عبر الكوة الضيقة المفتوحة على فضاء السلّم. تحدّث عن أشياء كثيرة.. وكانت الدمية تكبر بين يديه. أول الأمر.. لم أهتم كثيرًا بحضور جلساته، فهو، كالآخرين الذين طُحنوا من قبل، ما يثيرني فقط هو التعرف على بعض خصوصياته التي يسرّ بها إلى (اللعبة). كنت أحضر بدافع الفضول.. أحضر حينا وأغيب حينا، إلا أنني أصبحت مواظبًا بعد أن تجاوز حجم الدمية الحد الذي يستطيع قبله ترك الحديث إليها، أردت أن أشهد نهايته.

قضيت ليالي عدة منحنيًا على الكوة، عظام ظهري بدأت تؤلمني، رقبتي تخشّبت، وكثيرًا ما كنت أنام على حالتي تلك.. منحنيًا.. مسندًا رأسي إلى جدار السلم الرطب، غير أنّ ظهور تفتّق عند

سرّة (لعبة الصبر) جعلني يقظًا أكثر، فهذا يعني أنّ النهاية قد اقتربت، أردت أن أشهد موته. رأيت بطن (اللعبة) ينشق عن نصل حاد اخترق بطنه ثم بدأ يعلو ممزقًا صدره وصدر (اللعبة) معًا فيما كان الدم المنساب على صدره وفخذيه يتخثر بسرعة تاركًا بقعًا حمرًا داكنة فوق البساط الملوّث بكوم من قيء لفظه الرجل قبل أن يخترق النصل رأسه.

أيلول 1997م / أيار1999م

الأردن

حورية البحر

أحس، وهو مضطجع على السطح، أنّ الرطوبة تكاد توقف تنفسه. فوقه.. تبدو السماء داكنة، بلون الرصاص، قلقة. سرب طيور تحرّك أجنحتها ببطء مبتعدة باتجاه البحر. لكم يثيره هذا البحر! (آه.. تسحرني رمال الشاطئ، الصخور المبعثرة التي يغصّ الماء في منتصفها فلا يتمكن من بلعها. أأنت حورية البحر؟! نعم.. أنا هي. وقفزتْ لتغيب في الزرقة الصافية. تسلّقتُ الصخرة لأجلس مكانها. أنا سيد البحر!). تهزّه زرقته، هل سيبدو رماديًا داكنًا كما السماء؟ أيبقى أسير الغيوم أسبوعًا بأكمله دون أن تسقط قطرة مطرٍ واحدة؟! أسبوعًا هاجمت فيه الرطوبة تراب الأرض، جدران البيت المتداعية، وصلتْ إلى السطح حيث التجأ لقضاء الليل، وها هي الآن تحتلّ جسده الممدود على الفراش كقطعة خشبٍ مهملة والتي بدأت حركة خفيفة تدب فيه.

تحسس الفراش براحة يده، كان مبتلًا كما لو أنّه بقي يتبول فيه

الليل كلّه. رفع رأسه عن وسادة متسخة ببقعة عرق كبيرة في موضع رأسه. مدّ يديه إلى جانبيه ثم سحبهما بقوة وبطء. أحنى جذعه حتى لامس رأسه ساقيه الممدودتين أمامه. اعتدل. ملأ صدره بالهواء، أبقاه فيه ثوانيَ ثم زفره. سحب قطعة قماش كانت تستر جسده شبه العاري وبدأ بتجفيف العرق على جبهته.. صدغيه.. رقبته.. تحت إبطيه.. وبين فخذيه. ثم نهض بتثاقل وخطا باتجاه السلم.

خمسَ عشرةَ درجة يعدّها يوميّا، صعودًا ونزولا، يعدّها بصوت مسموع ليطمئن إلى وجودها. (قد تغيب!؟ ليس طويلا. شيء في داخلي يقول إنه طويل هذه المرة. سأذكر حورية البحر، جسدها الهلامي.. الجيلاتيني . عندما لمستها قفزت، ضاحكة، إلى الماء، كان ذنبها الذهبي آخر شيء رأيته. ثم غابت. وبقيتُ وحدي أرقب البحر، أنتظرها تخرج، ويطول انتظاري.. يطول.. ويطول). قطعة الخبز البائت تتعب فكيه. يسكب قدح الشاي في فمه دفعه واحدة. يغير ملابسه. يحمل كتبه. يبتلعه شارع. يلفظه شارع. يبتلعه شارع آخر ثم يقيئه. خطواته تتسارع. أزقة ضيقة. أرصفة تتزاحم عليها الأجساد. وجوه اعتاد رؤية بعضها كلّ صباح، يشعر أنّ شيئًا نشأ بينه وبينها: حب كبير.. وربما كره بحجم العالم. تناسى أنّه يعرف الشخص المقترب باتجاهه. حوّل بصره إلى الجهة الأخرى. (لوحة العرض واسعة تحتل

واجهة المبنى، عنوان خطّ بأحمر صارخ: حورية البحر، وكانت هناك.. جالسة على صخرة، ذنبها الذهبي يتدلّى ملامسًا البحر، لا أستطيع تمييز شيء آخر، تضيع المعالم، يغرقها البحر.. يبتلعها). سيل الأجساد حوله يتقاذفه وكأنّه على ظهر موجة عاتية تحمله إلى أعلى لتهوي به في مكان سحيق: بشر يختلفون، وجوههم طويلة، صفر. يرى أعناقا تمتد من خلف جذوع أشجار عالية تضيع قممها في السماء، لا يراها، تتسارع العيون إليه، تهاجمه، عيون حمر، جهنّم، سكاكين تقطّعه، يتشظى، يوشك قلبه على القفز من فمه، شيء في داخله ينكمش.. يضيق. أمسك بلوحة إرشاد مرورية. أسند ظهره إليها وسحب منديله. (أتراه؟ أصبح أسودَ. الوقت لا يتسع حتى لغسل منديل. تقضي حاجتك فقط.. نصف حاجتك أحيانا! كنّا نخرج راكضين.. ونعود راكضين). وإذ انتهى من مسح وجهه ورقبته بدأ يعبّ الهواء إلى صدره ببطء وعمق.

أمامه.. رأى الموجة التي حملته، رآها تحمل آخرين غيره، أجساد تتخبّط، أذرع تمتدّ، يسمعهم يصرخون، أصواتهم تهاجم أذنيه بشراسة، يوشك رأسه على التهشم. ضغط ظهره على عمود اللوحة. نجحت الأصوات في التغلغل إلى جمجمته، أجهزت على كل شيء هناك: ماضيه.. ذكرياته.. سني عمره، (أية سنين؟ خذها إن كانت تنفعك. سأتركها لك لتعيشها كمهزوم، نحن لا نأخذ شيئًا

تقدّمونه لتصبحوا أبطالًا.. أتسمع؟). تناثرت كتبه. ظهره ينزلق تدريجيا. تكوّر أسفل العمود ووجهه بين ركبتيه.

- ما بك ؟

جاءه الصوت بعد أن أحس بيد تضغط على كتفه. رفع رأسه. كان وسط طوق من بشر، عيونهم تتفرس فيه. أعناق تتطاول لتتمكن من رؤيته. لم يستطع فهم شيء من الغمغمات المتسللة إلى أذنيه. وهذا الرجل المنتصب أمامه.. هل ينوي اقتياده إلى مكان ما؟ قد يضربه، يدفعه إلى غرفة مختنقة بأجساد أحسّ لزوجتها وهو ينحشر بينها بصعوبة. كلّ شيء ممكن. (وحده البحر يستطيع محو إحساسك بالأسر). كتبه تتناثر أمامه. جمعها بيد ترتعش وغاب وسط الأجساد الكثيرة التي تدبّ على الرصيف[1].

تشرين الأول – 1987م

البصرة

---

١) تنويه:
كتب النص معنونا بِ(حالة) في تشرين الأول ١٩٨٧م ، ثم أعيد النظر فيه مع إجراء بعض التعديلات في تشرين الثاني عام ١٩٩٣م وغير عنوانه إلى (حورية البحر).

رائحة أخرى للورد

في الدقائق الطويلة التي أكون فيها معه يكون ضائعًا وسط بقايا هياكل دراجات نارية مبعثرة محاولًا إعادة الحياة إلى دراجته.. أو منهمكًا بلملمة أشلاء أثاث بيته المتهالك. ورغم كل ذلك، لم أكن أميز بين بحّة صوته والصوت المشروخ المنبعث من آلة التسجيل المختفية، عنوة، وسط الركام الزاحف على كل شيء حوله.. متسلقًا السلّم الحجري ليغيب مع انعطافته صاعدًا معه إلى السطح . أسمعه يردد:

(لا تسألني عن عنواني

لي كل العالم عنوان

لا تسألني أبدًا .. أبدًا

أنا بيتي في كل مكان)(*)

لم يكن أبوه (في موسكو فلاحًا)*، ولا أظنّه سمع بها يومًا،

يدرك ذلك، ويدرك أيضاً أنها أوسع بكثير من حديقة البيت الخرافي المتمدد جوار النهر والذي دفن أبوه أيامه كلّها فيه ثم رحل ليتركه وحيدًا.. مرددًا على الدوام:

(وأخي فيها عامل ورشة

أنا في الهند الصينية

فلاحًا يحمل قيثارة)* .

قيثارته، التي حرص على شرائها مع قبعة واسعة مصنوعة من الخوص يبدو، حين يضعها على رأسه، كواحد من مزارعي الأرز في بلد منسيّ، لم أره يومًا يعزف عليها، بقيتْ، بعده، مهملة على الجدار فترة طويلة قبل أن تبيعها زوجته بعد مساءات انتظار مضنية كان يبدو صباحها غائبًا.

ولم يره أحد. قصاصة الورق الوحيدة التي وصلت منه لم تكن تحمل عنوانًا أو أختام بريد واضحة. شعرتُ وكأن يده تمتد إليّ، عبر صندوق البريد، لتضعها في يدي متجاوزة كل البوابات الضخمة والجدران السميكة.

أرسلتُ له الكثير من الرسائل، وفي كل مرة كنت أضع لها عنوانًا ما.. أخترعه اختراعًا في مدن، لطالما حدثني عنها، موزّعة هنا وهناك في عالمه المتسع. ما يدهشني أنني، حين أتابع إيصال

التسجيل، كنت أجد على الدوام أنّ هناك مَنْ يستلمها!

وحين فقد (الأخ الأكبر) كلّ رتبه وأوسمته وهوى تاركًا منصته فارغة، حصلتُ على رقم لوحته الخشب في مقبرة (محمد سكران). سارعتُ في الكتابة إليه موقنًا أنّه، هذه المرة، سيجيبني. إلا أن رسالتي عادت إليّ، وجدتها تنتظرني وقد ختم عليها: العنوان غير واضح..

آذار – 2010 م

إجدابيا - ليبيا

(*) ما بين القوسين مقاطع لأغنية (يسارية) من سبعينيات القرن الماضي.

ظلال بلا أجساد

إلى: غ. غ. ماركيز

حين أُزيحَ عن كاهلي ثقل ثلاثة وأربعين عامًا وثلاثة أشهر ويومين وبضع ساعات لا أعرفها بالضبط بدوت خفيفًا.. طائرًا في فضاء الغرفة فوق رؤوس جميع المتحلقين حول جثتي التي لم تبرد بعد. المروحة السقفية تدور ببطء ثقيل محركة هواءً راكدًا.. مشبعًا برائحة أجساد وعفن خشب قديم. إنسحبت إلى زاوية الغرفة متحاشيًا أذرعها الثلاث الدائرة. أصبحت أتنفس بسهولة أكثر. أدهشني أن اصطدام رأسي بالسقف لم يؤلمني. ناديت أمي.. ناديتها كي (تفرك) موضع الارتطام كما كانت تفعل دومًا، ولكنها لم تسمعني. منحنية كانت، تتفحص وجه الجثة المسجاة أمامها. وحين أيقنتْ أنّ الموت استطاع أن يتسلل مخترقًا الباب الموصد، والسقف المعقود دون أن يشعر به أحد، ألقتْ بنفسها فوق الجثة. صوتها يختلط فيه الصراخ والنحيب، ورائحتها تنفذ إليّ عبر كل مسامات جسدي، تخترقني حتى العظم. أصبحتُ.. أنا الطائر فوق رؤوس كل هؤلاء الصارخين، الملقين بأجسادهم

فوق جسدي.. الجالس فوق قرص المروحة الدائر مدلياً ساقيّ، وكأنني أجلس على ضفة النهر القريب، دون أن أشعر بأذرعها وهي تقطع ساقي بدورانها البطيء.. أصبحت أتنفس بصعوبة.

قفزتُ من القرص الدائر فارتطمتْ قدماي بظهر جارتنا العجوز وكانت قد دخلت لتوّها إلى الغرفة. التفتتْ إليّ، قلت لها: أنا آسف.. لم أكن أقصد ذلك، فلم تكلّمني، بل صاحت على امرأة أخرى لم أرها كانت تقف في مكان ما من البيت المختنق بنساء متشحات بالسواد.. نادتها كي تحضر لها غطاءً، ومع أنها أغمضتْ، بأصابعها، عينيّ، إلا أنني رأيتها كيف جمعت ذراعيّ المتشابكتين فوق صدري إلى جانب جسدي، بعدها اقتطعت من حافة ثوبها، المزين ببقايا من تراب الزقاق، خيطًا كان طوله كافياً ليجمع فكي الأسفل إلى رأسي حيث العقدة التي عقدتها على عجل بأصابعها الناحلة. وقتها كان الغطاء قد أحضر. إجتمع عدد من النسوة لرفع جسد أمي من فوق الجثة، وكنتُ معهنّ، أسحبها من يدها، أحاول رفعها من كتفيها، أضع وجهي أمامها، ولكنها لم تكن تراني. صوتي يضيع بين أصوات كثيرة متداخلة ترددها جدران الدار التي لم تكن تتسع حتى لنا. وحين رُفعتْ أمي من عليّ بسطتْ جارتنا العجوز غطاءً سميكا فوق جسدي. إنسللتُ من تحته بخفة لص محترف لأجلس على إحدى أذرع المروحة تاركًا طرف الغطاء متحررًا من ثقل

رأس الجثة. العجوز وحدها من انتبه إلى ذلك. ترددتْ قليلًا قبل أن تعيد طرف الغطاء تحت رأسي الذي بدأ يدور بدوران المروحة البطيء. ومع أن عينيّ كانتا تدوران داخل الغرفة.. فقد رأيت عددًا من الرجال يدخلون مع تابوت من خشب وضعوه جنب الجثة. كان أقصر من ساقيّ الممدودتين إلى جانبه. وحين رفعوا الجثة لوضعها فيه سحبتهما قليلًا مجنبًا قدمي رؤوس مسامير ناتئة عند طرف التابوت الضيق لم ينتبه أحد إليها. بعدها حملوه إلى الخارج. وبقيتُ أنا.. جالسًا فوق أحد أذرع المروحة الدائرة ببطء كعادتها. ولمّا قفزت إلى الأرض لم ترتطم قدماي بظهر جارتنا العجوز.. ولا بظهر غيرها، إذ لم يكن هناك أحد.

* * *

قبل أن أنهض لأتبعهم.. كانت عمتي قد تركتْ صورتها المعلقة على الجدار لتنزل، كما كانت، بهدوء ساحبة رداءها الأبيض خلفها.. وتاركة (البيت) خاليًا لا يطوف به أحد. اقتربتْ مني تفوح منها رائحة العنبر.. ورائحة أزلية لم تفارقها يومًا حتى في وقوفها أمام تنور الخبز المسجر، أو جلوسها خلف (لمبة الكاز) التي توقدها أولًا، ثم تمدّ يدها بما بقي من اللهب في عود الكبريت المحترق لتشعل الشمس ساحبة إياها، بيدها الأخرى، قدر ما تستطيع لتطلّ على الأسرّة والفرش المتناثرة على تراب

السطح المشبع برطوبة الليل.

رفعتني من كتفيّ بقوة لم أعهدها فيـــها، فوقفتُ على قدميّ. (هل تراهم؟).. سألتني. قلت لها إنّي لا أرى أحدًا، فمسحتْ بيدها على عينيّ، وحين فتحتهما رأيتهم، كلهم، يقفون أمامي، وكانت عمتي الضريرة تتطلع إليّ:

- هل ترينني؟!

- أراك الآن كما لم أرك من قبل. كنتُ أحملك، دون أن أراك، متلمّسة الجدار إلى نهاية الزقاق. أجلس وأنت في حجري عند (شبّة التيل) منتظرة، وإياك، (حصان السيد). حين أسمع صوته ينادي (كاز.. كاز).. ألصق ظهري بالجدار متحاشية عربته التي لا أراها، أسمعها فقط تقترب. هل تذكر ترقيصتي لك؟ أرقص الآن: (حصان السيد هاليانه.. حصان السيد.. هاليانه).

رقصتُ كطفل صغير. وكان أبي واقفًا أمامي بدشداشته البيضاء و(العرقجين) على رأسه. احتضنني وبكى.

- سيكون أمامكم وقت طويل لتبكوا وترقصوا كما تشاؤون.

عمّتي، التي هبطت من صورتها وتركت (البيت) فارغًا لا يطوف به أحد، هي التي قالت ذلك. (هيا الآن). وسحبتني

للخارج. كان بيتنا خالياً إلا من بعض نساء يجهزنه لإقامة المأتم. أعرف ذلك. ستُرفع الصور، الستائر الملونة، كل شيء في الصالة الصغيرة سيغيب لتحلّ محله فرش ووسائد. (هيّا). خرجنا عبر نافذة غرفة أخي المجاورة لدهليز المدخل تجنباً لكومة نساء بدا وكأن فم الباب يغص بهن ثم يلفظهن إلى الداخل. كنت أتبعها وقدماي، بالكاد، تلامسان الأرض. (أخوك سيتبعنا إلى هناك. هو قال ذلك. لقد ذهب ليغير ضمادة جرحه. أنت تذكر فقط أنه خرج ولم يعد، أمّا ما حصل له بعد ذلك.. فلا تعرفه. أنا أيضًا لم أكن أعرف، ولكنّه، حين قادني ذات ليلة كما أقودك الان.. وبعد أن انفضّ الجمع كلّه، جلس إلي وحدثني، أراني جراحاته كلّها. ومن يومها وأنا أغيّر له الضمادات كل يوم. سألته مرة: متى ستشفى؟ ابتسم قبل أن يقول: لا أدري. اليوم.. وقبل أن أبدأ بفتح رباط جرحه الكبير.. دخلت أنت، فتركته وجئت إليك).

طائرًا كنت.. أتنقّل بين أزقة أعرفها، أحلق فوق السطوح، أرى (كارات) السعف والكرب مرصوصة عند التنانير، نساء يتحركن داخل البيوت، يقتعدن الأبواب، أجساد تزحف في كل الاتجاهات، (الطناطل) متربعة على رؤوس النخل، الوجوه التي غيّبتها الحروب، تلك التي خرجتْ ولم تعد، اقتيدتْ إلى عوالم أخرى دون أن تترك أثرًا أو خيوطًا تقود إليها غير رائحتها

المتشبثة بالجدران وبأشيائها القليلة الباقية على رفوف الخزائن.. أو في الغرف الموصدة، خبأها الليل. ها هي تظهر مرة أخرى ملتصقة بأبواب دورها، تنظر عبر النوافذ، تتوزع على أسيجة السطوح، وحده.. (كريم دوحي) ما زال يتنقّل على الأرض عبر أزقة لم تعد كما كانت أمس، يطرق صفيحته مستعجلاً طلوع فجره: (أگعد يا صايم.. اذكر ربك الدايم.. أشرب ماي القراح.. قبل لا يجيك الصباح). الوقت ظهر، قلت له. (لا يهم. المهم أن يستيقظوا).

كنت ممسكًا بثوب عمتي الطائرة باتجاه مسجد المحلة الوحيد. على الجانب الآخر القريب من النهر يبدو (أبو موحي) عاكفًا على شق جذع طويل. حاولت مخادعته والدخول عبر سور السعف اليابس، إلا أنه انتبه إليّ. كان يدقّ إسفينًا ثالثًا وسط الجذع، تركه وجاء إليّ فلذتُ بذيل عمتي:

- ما بك!؟

- (أبو موحي) يركض خلفي.

- سيركض كثيرون خلفك. وستلعب حتى تمل. أنت فقط مندهش مما يجري لك. تعال الآن.

تبعتها مخلّفًا أمّي وحدها عند (الشريعة) تغسل ما تبقى من قطع الثياب. (من سيحمل لها الطست عندما تعود)؟ (لا عليك.. ها

هي قد عادت. هل تراها ؟).

اجتزنا منعطفًا فبدا أمامي مغتسل المسجد مزدحمًا بكومة عباءات سود. وكانت أمي هناك.. مصلوبة على بابه الموصد. خلفها تماما يقف أبي محاولا تهدئتها دون أن تنتبه إليه. ولمّا رآني مقبلًا تركها واتجه إليّ بعد أن ركن دراجته السوداء عند باب المسجد الرئيس. حملني بيده قافزًا بي من فوق السور في حين أمسكت يده الأخرى طرف سعفة ترتفع عاليًا من النخلة المنتصبة في باحة المغتسل مستعينًا بها على الهبوط. وهناك.. وجدتني مسجى على دكة إسمنتية عند زاوية المغتسل القريبة من النهر. كان أخي الأكبر يحاول، بيده.. وبما تبقى له من يده الأخرى، دفع كمية من الحطب تحت القدر المسجر. تلفتُّ. لم أر أحدًا غير أخي.. وصوت آلفه، يبدو أنه لشيخ خرج توًّا من باب جانبية لغرفة كنت أظنها موصدة.

في الوقت الذي دسّتْ فيه عمتي يدها لتتحسس الماء كان الشيخ قد سحب يده منه مناديًا شخصًا غائبًا ليقرب إليه السدر والكافور. إرتجف جسدي مع أول دفقة ماء ناولها أخي الأكبر بيده السليمة إلى الشيخ الذي صبها فوق رأسي. (الماء بارد).. قلت لعمتي. (لا عليك. دعه يفعل ما يشاء. أما أنا.. فسأنتظر حتى يسخن، فربما يكون أخوك قد عاد ليناولني الماء). بحثت عن أبي، وجدته على قمة المئذنة واضعًا يده أمام جبهته مستطلعًا

كلّ الطرق المؤدية للمسجد. (هو يفعل ذلك عندما يخرج أخوك ويتأخر في عودته. يخشى أن يفقده مرة ثانية). لقد جاء.. لقد جاء، صاح أبي متهلّلًا. (ها قد جاء أخوك).

وقف أمامي بذات الثياب التي خرج بها آخر مرة ولم يعد. عبر شعره المرسل.. استطعتُ أن أرى البؤرة التي سقط منها الشعر، يده اليمنى ملفوفة بضماد أبيض جديد يغيّب ساعده كله. (لقد كبرت).. قال لي، وكان هو على حاله. في خنصر يده اليمنى أثر الخاتم، الذي لم يلبسه تلك الليلة، ما زال باقيًا. أردت أن أسأله فوضع يده على فمي قائلًا: (ليس الآن. أمامنا وقت طويل لنتحدث). ثم همس: (كلّهم هكذا.. جراحاتهم ما زالت تنزّ، وستبقى هكذا حتى يظهر الرجل، ربما ...)، لم تتركه عمتي يكمل، سحبته من يده ليناولها الماء. وحين صبته على رأسي لم أرتجف.

* * *

أيقظتني رائحة عطر نفاذة يبدو أنّ أحدًا ما سكبه فوق رأسي فانتبهتُ. بدا المغتسل خاليًا. بقايا بقع ماء تتلامع على الدكة الإسمنتية. خيط دخان واهن يجد له طريقًا من تحت قدر النحاس المسود. صحوتُ في حضن عمتي الضريرة. أمامي يقف أبي حاملًا على ذراعه الممدودة ثوبًا جديدًا. وكان أخي غائبًا.

- ها قد أحضرنا لك ثوبًا جديدًا. إشترى أبوك القماش، وأنا عكفتُ على خياطته. ما زلت على عادتي.. أبحث عمّن (يلظم) لي الإبرة. أخوك، بغيابه المتكرر، يتعبني، أنت ترى أنه ذهب مرة أخرى. إذا لم يكن موجودًا أستعين بعمتك الضريرة. هيّا.. انهض لترتديه. تركتك تنام قليلًا لترتاح وتستعيد عافيتك. ناولني الثوب .

حضن عمتي يتسع لجسدي كله. ارتديت الثوب. بدا كبيرًا فضفاضًا حتى أنّ جسدي ضاع فيه. بعدها اعتلى أبي دراجته وانطلق بعد أن أجلسني أمامه.

- لأجلس في الخلف .

- هذا مكان أخيك. سنجده على الطريق. هو يستطيع القفز بسهولة أكثر منك. أنظر.. ها هو.

وجدته على المقعد الخلفي. أمامنا.. كانت عمتي تقطع الطريق مشيرة إلى أبي ليتوقف. (من هنا سنكمل معهم مشيًا. لم يبق الكثير).

أدركْنا الجمع المتجه إلى مقبرة المدينة عند بوابتها. تركتهم كي ألحق بالتابوت لأعينهم على وضعه على الأرض محاذرًا أن تمس رؤوس المسامير قدميّ. ولمّا وضعناه جلست فوقه بمواجهة الجمع أحصي عدد التكبيرات وأسمع ما يقوله الشيخ الذي صبّ على

رأسي ماءً باردًا هناك. ثم تنحّيتُ عندما أرادوا رفع الغطاء.

* * *

لمّا وُضعت الجثة على الأرض تسربت برودتها إلى ظهري فانقلبتُ على أحد جنبيّ. بعدها بدأ كهل يملك معولًا بإهالة التراب فوق الجثة. طلبتُ منه أن يتوقف، صرخت به، بالحاضرين، وقفتُ أمام وجوههم، ولكنّ أحدًا لم يلتفت إليّ.

بعد أن انفضّ الجمع تبعتهم بخطىً ثقيلة. وعند بوابة المقبرة اعترضني حارس عجوز قائلا:

- أنت الوحيد الذي لا يحق له العودة.

عدتُ. كان تراب القبر رطباً فجلست على جانبه وعيناي معلقتان ببوابة المقبرة الموصدة بانتظار أن يأتي أحد إليّ.(*)

أيار – تموز 2008م

إجدابيا / ليبيا

*) تنويه: يشير الكاتب (غ.غ.ماركيز) في مقدمة قصص ترجمت له تحت عنوان (١٢قصة) إلى قصة جنازته. وقد أشار إلى ذلك أيضاً في مقدمة مجموعة (حجيج غرباء) بطبعتها الأولى الصادرة عن (دار ورد) سنة 2005 م بترجمة فائز خنيسة. من أجل ذلك اقتضى التنويه .

جار الله

أسماه (جار الله).. كي لا يموت، إذ لم يعد في العمر متسع لانتظار طفل آخر.. قد لا يجيء. ما زال يحمل في وجهه بقايا عينين تدلّه بصعوبة على طريقه مع أنّ شيئًا في المدينة لم يتغير. بقيت أزقتها محفورة في رأسه، يسير بها يوميا وهو جالس هناك بعيدا عن كل شيء حميم، يبعثر أحجاره فوق منديل متسخ دون أن يهتدي إلى نبوءة ما قد تنير له طريقه. كان الأفق بعيدًا.. بعيدًا لدرجة اليأس، وكان وحيدًا يشعر بالبرد.. وبثقل زمن يمر بطيئًا كعجوز هرمة.

(لا شيء لك هنا).. كان، وربما يخيل إليه أنه، يقرأ ذلك في كل مرة يبعثر فيها أحجاره. في المرة الأخيرة لم يجمعها.. تركها حيث هي.. مبعثرة فوق منديله المتسخ وقرر أن يعود. وها هو الآن يلتمس طريقه فيها كأعمى يبصر بعصاه. كل شيء غائم. الأشياء فقدت ملامحها. ربما يكون العمى الذي داهمه بوقت مبكر هو السبب، ولكنه يستطيع أن يرى بوضوح صورة أبيه على

الجدار البعيد.. مكانه الأثير على ضفة النهر.. الوجوه التي غيّبتها الحروب.. وتلك التي ألقى بها القهر بعيدا في زوايا مهملة. كان هناك.. ينوء بحمل ذكرياته، يسحق يوميا تحت وطأة نبوءة يظنّها زائفة.

عرّافة غجرية قالت له ذات يوم: ستعيش غريبًا.. وتموت وحيدًا. (أذكر تماما أن ما أجلسني أمامها ليست أحجارها المبعثرة على منديل مخطط مبسوط فوق تراب تسويه لحظة بعد أخرى براحة يدها.. كنت هاربا من قتل محقق منتصب على الحدود). «رائحة الموت تفوح منك».. قالت ذلك وهي تطرق متفحصة أحجارها، وكان يطرق ليرى عنقها ومنبت نهديها بذات الوضوح الذي يرى فيه وجه (جار الله) المسجى أمامه الآن.

في زاوية الغرفة البعيدة كتل سود تحاول جاهدة كبت صوت نشيجها الأزلي.. ومع ذلك.. بقي يتسللٍ عبر العباءات و(الفوط) ليخترق أذنيه فينتبه إلى أنّه بقي وحيدًا. (آمِنْ بالله يا رجل. لا حول ولا قوة إلا بالله).. أحدهم قال له ذلك.. ثم تركه مع الجثة التي بدأت تبرد. لم يكن يدرك أن هناك مَنْ ينتظره كي يغتال حلمه. هل تُرى كان عبثا كل ذلك! هل جاء (جار الله) ليبعث الدفء في قلبه ثم يغيب.. هكذا.. قبل أن يستشعر ذلك الدفء جسده المرتعش دوما؟!

بأصابع مرتجفة أغلق عينيه. سحب الغطاء على جسده دون أن

يغطي وجهه. (سينهض).. قال.. (أقسم لكم أنه سينهض. انتظروا فقط).

في الخارج.. كانت هناك حركة مرتبكة لتجهيز التابوت ولوازم الدفن الأخرى. وفي الداخل كان وحده يصرخ، صوته يصبح الآن أكثر وضوحا. علامات الدهشة ترتسم على الوجوه. ترك الجميع كل شيء متجهين إلى الغرفة. كان الرجل يدور حول الجثة قائلا:

(إشلون تموّت جارك   وانت موصّي بسابع جار)

وكانت هناك رعدة قد بدأتْ تسري في الجسد المغطى قبل أن يطغى السكون على كل شيء.

تشرين الأول – تشرين الثاني 2004 م

إجدابيا - ليبيا

صانع التوابيت

حين يكون باب دكانه مفتوحًا تدرك القرية كلها أنّه بمجرد أن ينتهي من وضع الغطاء على فم التابوت.. أن هناك مَن سيغيب.

تتجه الأنظار إلى الكهول، أو المرضى، أو الغائبين من زمن بعيد. يُصبح الشارع المار من أمام دكانه مقفراً. وحدها.. عجوز متكوّرة على عصا وتسكن غير بعيد عنه.. وحدها تقف لتتطلع إليه وهي تجتاز الشارع، تسأله إن كان هذا التابوت من أجلها. وكان يصمت كعادته.

آخر تابوت صنعه كان قبل أشهر مضتْ. حمله وحيدًا واضعًا إياه عند الباب.. باب المسجد، ليدخل هو لصلاة الصبح. كثيرون ممّن رأوه مسجًى أمامهم عادوا، فيما دخل بعضهم من باب جانبية تجنّبه المرور المباشر أمام فوهة القبر المفتوح. (الأعمار بيد الله).. قالها أحدهم وهو يزرر على عمره معطفًا ثقيلًا ممتدًا حتى قدميه ليخفيه عن أعين الموت المتربص عند رأس التابوت..

راكضًا، خلف قدميه، باتجاه الباب البعيدة. بعدها لم تلمسه يده، بل تدافعت إليه أيدٍ كثيرة لتحمله إلى الداخل حيث إمام المسجد الذي لم يرفع رأسه من سجدة الصلاة الأخيرة.

إلا أنّ شيئًا لم يحصل. أغلق الرجل باب حانوته وغاب دون أن يرتفع صراخ من مكان ما. أدهشهم ذلك. بحثوا عنه. قال بعضهم إنه رحل قبل أن يتم صنع التابوت.. ربما ليوقف الموت المتقدم مع كل مسمار يطرقه. فيما قال آخرون إن نبوءته لم تصدق هذه المرة فآثر أن يغيب تاركًا دارًا صغيرة عند طرف القرية القريب من النهر.. ودكانًا وجدوا فيه، حين فتحوه، القليل من الخشب.. منشارًا صدئًا.. ومساميرَ مبعثرة. وكان هو هناك: مسجى داخل التابوت ويداه عالقتان بالغطاء الذي توقف سحبه عند منطقة الصدر.

29 / 4 / 2007 م

سبها - ليبيا

المعطف

لم يبقَ الكثير ليصل. الضوء الأبيض الذي تطلقه المصابيح الأمامية، والتي أشعلها قبل حلول الظلام، لا يلبث أن يضيع.. يتشتت بفعل الضباب المصرّ على الهبوط كثيفًا مغيّبا كل شيء حوله: الأشجار المنتصبة على جانب الطريق بخطوط مستقيمة تجعلها تختفي، وهو يتابعها بطرف عينه في اللحظات التي يطمئن فيها إلى خلوه، الواحدة خلف الأخرى ليبدو صفّها الطويل الممتد إلى حيث لا يدري وكأنه شجرة واحدة.. كل ذلك يراه على اليمين. على يساره.. غيّب الضباب، الراكض باتجاهه، قبورًا مبعثرة بفوضى تذكّره بعبثية الموت وجنونه حين بدأ يغرز أنيابه في جسد المدينة محوّلًا إياها إلى جثّة كل شيء فيها يترقبه. تلك البعيدة منها.. لم يعد يراها.. ابتلعها الضباب المستحيل لونه إلى الرماد مع حلول الظلام، بينما تتشبث القريبة بعينيه وبما تبقى من ضوء محاولة الإفلات من قبضة الظلام الزاحف إليها كما الموت، وهو ينثر شظاياه في كل مكان حيث لا ينفع الاختباء

أو الجلوس خلف جدران سميكة ومراقبة الحياة، وهي تعدو، من خلف نافذة تطلّ على شارع أو زقاق.

يرفع زجاج النافذة القريبة منه أعلى قليلًا تاركًا فتحة بسعة إصبعين متلاصقين ثم يحكم وضع معطفه الثقيل على كتفيه. تتناوب يداه في مسك المقود الكبير المرتجف، ككل شيء حوله، ربما بسبب البرد أو الخوف من أن يحل الظلام قبل أن يصل، عندها ستضيع معالم الطريق تمامًا ولا يعود أمامه غير الزحف ببطء قريبًا من الخط الأبيض الطويل المرسوم على حافة الطريق.. هذا إذا لم يضطر إلى التوقف وقضاء الليل هنا.. وحيدًا. تحسس، بيده التي حررها من المقود قبل قليل، فراشه الملفوف خلفه ثم نقلها لمسح قطرات الماء المتكاثفة على الزجاجة أمامه بقطعة قماش لم يبحث عنها طويلًا، إذ كانت محشورة تحت فخذه. إلا إنه، هذه المرة، تركها أمامه فوق علبة العدادات المتراقصة على إيقاع دويّ عربته المتدحرجة، بتثاقل، على بقايا ما تلتقطه عيناه من الطريق الإسفلتي المنحصر فقط بين مقدمة السيارة والمساحة الضيّقة التي تنيرها مصابيحه قبل أن يمتصّها الضباب.

(قلت له ذلك.. ولكن الرجل، بكرشه المندلق فوق فخذيه والذي كان يضطرّ إلى رفعه بين فترة وأخرى ليعدّل من وضع حزامه قبل أن يعيد يده الثقيلة، مرة أخرى، لترتاح على مسند الكرسي قبل أن تبدأ النقر، بواسطة خاتم ذهب يضيق به إصبعه، برتابة

تجعل لحظات الانتظار أكثر طولًا ممّا هي عليه وأنا أتابع العاملَين وهما يفرّغان ببطء حمولة الشاحنة:

- لو أحضرت اثنين آخرين.. كنّا انتهينا الآن.

ولكنه لم يسمع. وحين أصبح حوض الحمل فارغًا كانت الشمس قد اقتربت كثيرًا من الأفق. الشطائر، التي أحضرها لي، ما زالت راقدة داخل الكيس على الطاولة. حملتها معي وانطلقت).

لمّا تذكّر كل ذلك كان المساء قد حلّ.. وتذكّر أيضًا أنه لم يلتهم شيئًا منذ الصباح.. وعندها شعر بالجوع. مدَّ يده إلى الكيس المطروح فوق المقعد الفارغ المجاور له، استخرج شطيرة وبدأ بقضمها ببطء يتناسب مع حركة عربته على الطريق الذي غيّب كل من الظلام والضباب معالمه. العجلات القليلة التي كانت تقابله بعيونها المضيئة وهي تقترب منه.. انقطعت. وحدها الضجة، التي تصدرها عربته، تبقيه يقظًا يتابع بعينين، يجاهد كثيرًا كي يبقيهما مفتوحتين، ما ينكشف له من الطريق حتى أنه لا يدري إن كان هناك فعلًا من يلوّح له.. أم أنه قد رأى ذلك في اللحظات التي انطبق فيها جفناه رغمًا عنه. توقّف. قنينة الماء، التي التقطها من بين قدميه ليغسل وجهه.. وربما ليشرب قليلا، سقطت من يده لمّا سمع طرقًا على الباب الجانبي البعيد عنه والذي لا يمكن فتحه إلا من الداخل.

* * *

فتح له الباب كهل له ذات العينين. يراه بوضوح على ضوء الصباح الساطع بعد أن بعثرت الشمس ما تبقى من ضباب البارحة الكثيف، بقاياه ما زالت تتجمع ببطء لتسقط من نهايات أوراق الأشجار التي بدت مغسولة بعناية في حين شربت الأرض الكثير منه حتى كأنها قد ارتوت أو كادت. ولمّا عدّل الكهل من وضع معطفه الثقيل فوق كتفيه تذكّر لماذا هو واقف هنا:

- أتيتُ لأخذ معطفي.

- أيّ معطف! على أية حال.. أدخل.

في الغرفة، التي لا تبعد بابها عن باب الدار الرئيسة أكثر من ثلاث خطوات، تركه وحده. وهناك رآها.. على الجدار المقابل له.. كما رآها في آخر مرة خرجت فيها ولم تعد. (لمْ أطلب منها أن لا تخرج.. ولكنّي تمنّيت أن لا تفعل، إذ لا أحد يضمن ما قد يحصل. أصبحنا، قبل أن نخرج، نودّع أشياءنا الحميمة.. نلقي نظرة، ربما تكون الأخيرة، على كل شيء. أنا، هذا الصباح، طفتُ البيت كله غرفة غرفة، وقفتُ طويلًا أمام الصورة المعلّقة على الجدار، وعندما خرجتُ.. نظرتُ، وأنا جالس في عربتي المركونة تحت الشجرة الكبيرة مقابل الدار، إلى البوابة التي أوصدتها للتو.. وإلى النوافذ المفتوحة حيث تحجب الستائر كل شيء داخل الدار التي بقيتْ خالية). لحظات قليلة فصلتْ بين رؤيته لها وسماعه صوت دويٍّ أخرجه راكضًا ومعطفه

بيده.. لم يضعه على كتفيه بعد. وهناك وجدها بين أجساد كثيرة متناثرة. وكان معطفه قصيراً ألقاه على الجسد المتكوّر أمامه تاركًا الوجه مكشوفاً ليراها كما لم يرها طول ليلة أمس حين بقيت ملتصقة بالباب بنفس الثوب الذي تلبسه الآن مبتسمة إليه.. مفارقة كل خوفها وحذرها الذي قرأه عليها البارحة وهي تحدثه:

- غفوتُ.. ربما غفوت. جئت لزيارة قبر لي هنا، ولما فتحت عينيّ كان المساء قد حلّ.

- وهل جئت وحدك؟!

لم تجبه. ولمّا التفتَ إليها واجهته فوضى الشعر المنسدل على كتفيها، والذي يبدو ضاحكًا ككل شيء في الوجه المقابل له على الجدار، وهي تنظر إلى الخارج عبر الزجاجة المضببة محاولة وقف ارتجاف جسدها بضمّ ذراعيها إلى صدرها. وعندها ناولها معطفه:

- ضعي هذا عليك.

وعندما التفتت إليه لتناوله من يده الممدودة. لم يستطع، ربما بسبب الخوف أو الظلام.. أو أن الوجه الذي قابله كان غائبا بعيدا في مكان ما.. وقد تكون تركته ملتصقا على الزجاج المضبب قبل أن تلتفتَ إليه، رؤيتها بوضوح كما يراها الآن.. وكما رآها بعد أن ألقى معطفه الثقيل عليها وأزاح، بيد مرتجفة، خصلات الشعر

عن وجهها فبدت أمامه نائمة تحلم. ثم عادت لتنظر إلى الأمام وهي تجيب على أسئلته باقتضاب دون أن يرف لها جفن:

- أين ستصلين؟

- بيتنا.. عند مدخل المدينة. الشجرة الكبيرة.. أرأيتها؟

- نعم. أنا أيضا ذاهب إلى هناك.

- بيتي لا يبعد كثيرا عنها.

- أتشعرين بالجوع؟ ربما بقيتْ شطيرتان داخل الكيس.

لم تجبه. ما تبقى من الطريق قضاه بصمت. إحدى عينيه مرسلة إلى الخارج عبر الزجاج وهو يمسحه بين فترة وأخرى فيما عينه الأخرى تنزلق على الجسد المسمّر قرب الباب البعيد عنه مراقبا اهتزازه مع حركة السيارة فوق مطبّات الطريق الكثيرة.. متجاوزًا حافة الثوب عند منتصف ساقيها ليرى، بصعوبة، قدميها العاريتين تنامان فوق بعضهما.

* * *

حين دخل.. كنت ما أزال واقفًا أمامها، أنظر في عينيها، أو إني لم أستطع التحرك بعيدًا عن نظراتها وهي تتابعني.. وهذا

ما لم تفعله ليلة أمس. ظننتُ أنه غاب في الداخل ليحضر لي معطفي.. وها هو واقف أمامي كما رأيته على الباب قبل قليل.. غير أن معطفه لم يكن على كتفيه:

- أنتَ من أوصلها إلى هنا؟ على أية حال.. كنت أنتظرها. في مثل هذه الليالي تأتي. تنتظر الضباب والمطر.. وتتسلل كي لا يراها أحد. تدخل غرفتها. تبعثر أشياءها كما اعتادت أن تفعل. تترك الخزانة مفتوحة. وفرشاة الشعر، التي أبحث عنها طويلا قبل أن أجدها مرمية في مكان ما، ما زالت محتفظة ببقايا شعرها وقد مشطته قبل أن تخرج. أحيانًا كنت أنظر إليها متمنيًا أن تبقى.. وأحيانًا لا أراها كما حصل أمس، فقد عدتُ من طريق طويل قدت فيه عربتي بصعوبة، عيناي مجهدتان من متابعة طريق تعاون على طمسها الظلام والضباب. قلتُ: لأسير ببطء.. سأصل متأخرًا، ولكنّه أفضل من أن أقضي الليل هنا ملتحفًا معطفي، لا أدري إن كنت سأغفو أم لا، ولمّا يجيء الصباح أنهض بجسد متكسّر لأكمل طريقي. واصلتُ السير متبعا الخط الأبيض المرسوم على حافة الطريق. ومع إني وصلت في وقت متأخر.. إلا إنني بقيت أنتظرها هناك: على المقعد المقابل للباب. غفوت.. فلم أرها. ولكني أعرف أنها كانت هنا حين أدخل غرفتها في الصباح وأجدها بفوضاها المحببة إليها. ولمّا أبدأ بترتيبها من جديد يأتي منْ يطرق عليّ الباب سائلا عن معطفه.. كما

فعلت أنت.

(لم أجبه.. لأني لا أعرف، حقًا، بماذا أجيبه. ولما استدار ليخرج تبعته إلى سيارة كبيرة مركونة تحت شجرة لا تبعد كثيرًا عن الدار. على العجلات.. آثار طين لم يجف بعد. صعد هو.. واستدرت لأصعد من الباب الآخر على الجهة الثانية، حاولت فتحه فلم ينفتح، ولما طرقته فتحه هو من الداخل. أدار المحرك.. وحتى يسخن.. التقطتْ يده قطعة قماش مرمية فوق علبة العدادات المرتجفة في مكانها وبدأ يمسح ما تبقى من رطوبة عالقة على زجاج السيارة أمامه قبل أن ينطلق).

* * *

توشك الشمس أن تتوسط السماء. يوقف سيارته على جانب الطريق. يخطو، بين القبور الموزعة بفوضى، باتجاه قبر يعرفه. يجد معطفه هناك.. ملقى على قبر وكأنه يغطيه. يقف قليلا قبل أن ينحني ليلتقطه، يضعه على كتفيه.. ثم يعود إلى العربة وقد بدأ صوت محرّكها يصله بوضوح أكثر كلما اقترب منها.

شباط – 2014م

البصرة

لصوص

سُمح لنا، نحن المرافقين الأربعة، بالبقاء فوق سطح المبنى.. ومن هناك رأيت الباص الأسود الكبير الذي نزلنا منه قبل دقائق كنقطة سوداء وسط الصحراء التي تعانق السماء في مكان ما يصعب تبيّنه بوضوح بسبب السراب. أمامه كان يقف باص صغير بلون الفضة الصدئة بنوافذ كبيرة تُغطّيها، من الداخل، ستائر ملوّنة.

فوق سطح المبنى جدران مبنيّة بتداخلٍ لم أتبينه جيدًا، يحجبك عن رؤية الحرّاس الآخرين على زوايا المبنى الأخرى، هناك كوىً عديدة تفتح إلى داخل القاعة مغطاة بزجاج أسود وموزّعة بشكل هرمٍ قاعدته جهة البوابة الكبيرة ورأسه، لا أراه من زاويتي هنا.. ولكنه، وهذا ما أظنه من خلال ملاحظتي للكوى العديدة القريبة من زاويتي والتي كان زجاج أحدها مكسورًا، عند ضلع المبنى البعيد المقابل للبوابة الكبيرة.

كان آمر المجموعة يعالج الترباس الكبير للصندوق الحديد الأسود.. فتحه.. سَمَحَ للسجناء بالنزول واحدًا إثر آخر مشيرًا إليهم ليتوجّهوا إلى البوابة الكبيرة، ولمّا غاب آخر شخصٍ في الطابور عن بصري استطعتُ، عبر الكوّة المكسورة الزجاج، رؤيتهم يخطون داخل المبنى فوق بساطٍ بلون الرماد أمام كهولٍ مستندين إلى جدران المبنى.. أو يجلسون، كالكهل الذي أمامَ كوّتي، فوق كراسٍ خشبية نخمة بمساند مرتفعة.

كانت القاعة شديدة الإضاءة. ما رأيته بالضبط هو أنّ فتىً وقف أمام كهلٍ متكوّرٍ فوق كرسي نخم. عيونه الجاحظة تفترس الفتى.. تمتصّه، الفتى يذوب، ترتجف ساقاه.. تنحنيان.. يتكوّر أمام الكهل الذي يبدو أنّه لمحني أنظر إلى الفتى فأرسل بصره إليَّ، وعندها رأيته بوضوح وقد أصبح فتى غضًّا بظهرٍ منتصب. أحسستُ بظهري يتخشّب.. وبساعديّ يضعفان فأسندتُ جبهتي إلى الكوة.. رأيتُ الرجل يغادر كرسيه وهو ينظر إليّ مبتسمًا.

لم أستطع النزول مع أني سمعتُ بوضوح صراخ آمر المجموعة، كلّ ما استطعتُ فعله سحب جسدي إلى رأس السلّم الحديد عند زاوية المبنى. أرسلَ من يحملني إلى الأسفل. كنت آخر من بقي.. وكانت الستائر الملوّنة على نوافذ (الباص) الصغير قد أزيحت عن وجوهٍ حمر.. وأجساد تملأ المقاعد .

كان آمر المجموعة يمسك الترباس الكبير.. ينظرُ إليّ ومخاطبًا

الشخص الذي يحملني: «يبدو أن زجاجة إحدى الكوى العلوية مكسورة». بعدها وضعني الرجل في الداخل مع كهولٍ عديدين وأغلق الباب.

كنتُ آخر من بقي داخل الصندوق الأسود. جميع الكهول وزّعوا في شوارع فرعية. كان الوقت ليلًا. تلقفتني سواعد قوية لتضعني عند قاعدة عمودٍ مظلم في شارع مضاء يشبه كثيرًا شارع المدينة الرئيس.

برودة العمود الحديد تخترقُ ظهري. أنتظر الآن هدوء تنفسي المضطرب.. وحتى يهدأ.. قد أستطيع أن أحدد بالضبط أينَ أنا.. وأن أجد شيئًا أتوكأ عليه للوصول إلى البيت.

آذار-2001م

ليبيا

فنارات مظلمة

إنّه المساء.. بداية الأفول لدليلي.. النجم. ومثل كلّ ليلة.. عليك أن تُلقي مرساتك، تترك الحبل الغليظ ينسلّ من بين يديك كأفعى خشنة، تتابع اهتزازه، توتّره، غوص مرساتك في العمق السحيق. أوشكت قروح راحتيك أن تندمل، دَبَغَتها مياه البحر بعد أن قضمتها أطراف المجاديف، شققها انسلال الحبل بسرعته المذهلة عندما يبتلعه البحر كلّ ليلة. هكذا أوصاني الرجل: (للوصول إلى هناك.. يجب أن تمتلك جسدًا حديديًا يكدّ النهار بطوله. ستكلّ ذراعاك، تتقرح راحتاك، يسودّ جسدك. عليك أن تجدف طوال النهار والنجم أمامك، بين عينيك، ثم تُلقي مرساتك قبل أن يُغيّبه الظلام.. تلقي مرساتك وتنتظر الغد).

إنها الليلة الرابعة من المساءات السبعة التي حددها الرجل. لا أعلم أين أنا. في الليل.. تُصبح الدنيا كلها بحرًا، ومع ذلك.. فهو

يُطبق عليك بكل سعته، يبدو ضيّقًا كقاربي. سَكَنَ الحبل بين راحتيّ. بعد ربطه إلى الحلقة الحديد في صدر الزورق وقبل أن أبسط فراشي المطويّ تحتي نهارًا، أخرج بعضًا من الخبز الناشف. (جهّز لك زادا.. خبزًا ناشفًا من غير ملح كي تبلّه بماء البحر وتحتفظ بمائك الآخر للشرب). أبتلعه بشراهة. أفتح فراشي. أضطجع بين دفّتيّ الزورق. في الليل.. تُصبح الدنيا كلّها بحرًا. تملأ النجوم عينيّ. يهدّني التعب. وكأي ليلة ماضية.. سأنام، وأستيقظ بعد أن تلسع الشمس جسدي. أبحث عن النجم كما أوصاني الرجل، ثمّ أرفع مرساتي.. وأنطلق.

* * *

الحكاية بدأت هناك: كان الضوء المتسلل من الكوّة الضيّقة الملتصقة بالسقف يبدد بعضًا من ظلمة المكان الأزلية. لا أدري أين أنا، ولا كم مضى من الوقت مذ كنت في شارع السوق الرئيس حتى وجدتُ نفسي هنا.. مضطجعًا، تصطدم عيناي بالسقف. كان جسدي متخشّبًا. سحبته بجهدٍ لأسند ظهري إلى الجدار الحجري، عندها بدا لي المكان على حقيقته، شكليّته الغائبة، كنت في كهفٍ شبه معتم تربطه بالسماء كوّة هزيلة، فيما تقود عشر درجاتٍ حجرية إلى بابٍ ضخم موصد لا أدري إلى أين يُفضي.

في الركن المضاء المقابل لوجه السماء.. رأيته، يضمّ فخذيه إلى صدره بذراعين مشعرتين. وجه متحصن بلحية ثلجية كثّة تصل إلى منتصف صدره. نهض إذ رآني أحدق فيه. اقترب منّي. الغريب أني بقيتُ هادئًا وكأني أعرفه. كانت عيونه، على صغرها وغيابها تحت فوضى الشعر، تتلألأ. أتأمل الجسد الممتلئ، القامة المديدة. كان، بحركته، يبدو نشطًا بشكلٍ يعكّر تناسق المكان. وقتها شعرتُ، وأنا مستند إلى الجدار الحجري، كأني إحدى هذه الأحجار العديدة الموزعة بنظام معيّن قريبًا من جدران الكهف. (أخيرًا أفقتَ). كان يقترب منّي.. وكنت مشغولًا بنظام توزيع الصخور المبهم بالنسبة لي: أكوام تتفاوت بأحجامها، أعدادها، وحتى ألوانها. (لا تندهش. ستتعلم كل شيء إذا طال بقاؤك. يجب أن تتعلم. عليك أن تعرف في أيّ يوم أنت، أية سنة، كم مضى على وجودك في هذه القلعة، ......). أنا في قلعة إذًا، إنه المكان الأول الذي أعرف ماهيّته بشكل مؤكد منذ أن حملني باص أصفر كبير من شارع السوق الرئيس. كنت أتنقل، معصوب العينين، بين غرف ومكاتب عديدة، أصعد.. أهبط.. وقد يدفعني شخص ما فأتدحرج على طول سلم حيث يقودني شخص آخر لتبدأ رحلة أخرى، وأخرى، تنتهي كلّها في غرفٍ أكتشف ضيقها فيما بعد. المكان الواسع الوحيد الذي دخلتُ إليه كان مسرحًا قديمًا تملأ الأجساد مدرّجاته فيما تحتل خشبته وجوه يبدو أنها اختيرت بعناية لتكون هناك.. بعيدة عن شيء

بقيتُ أجهله حتى تركت (المسرح) في رحلة طويلة لأصل إلى هنا.. هذه القلعة! (...ومتى ستخرج. إنني أعرف اليوم الذي سأخرج فيه، لذلك تراني أجمع كل هذه الأحجار، أرتبها، أعرف أيامي بواسطتها. أنظرْ.. أنظرْ إلى هذا الصف الطويل من الأحجار،.......). كان يتحرك محاذياً لصفٍّ طويل من أحجار بيضاء تحاذي جدران الكهف مشيرًا إليها بإصبعه. (هذه لو عددتها لوجدتها ...). توقَّفَ. كان ينظر إليّ. تقدّمَ. قرفصَ أمامي. سألني وعيونه تأكلني: (مَنْ أنتَ؟).

* * *

إليك حكايتي: كان صباحًا رائقًا. وأنا.. كأي يوم آخر.. عليّ أن أقطع شارع المدينة المحاذي للنهر لأصل إلى شارع السوق الرئيس. أدهشني أنه يختنق بالبشر. كنت أتحرك بصعوبة وسط أجسادٍ كثيرةٍ تضغط جسدي من كل جانب. وصلتُ الساحة الكبيرةً منتصف الطريق، كانت مطوّقة بالجنود، بعضهم يحمل الهراوات، فيما كان آخرون يصوّبون أسلحتهم باتجاه النهر.

ماذا يجري؟ همسَ بأذني كهل يقف خلفي: (التمثال الكبير.. كان هنا أمس، وفي الصباح لم يجدوه، الغريب أنّ مجموعة الحرس حوله لم تَرَ شيئًا طوال الليل، إلا أنهم فوجئوا في الصباح

بمكانه خاليًا). وماذا حصلَ له؟ (لا أدري. يُقال إنّ مجموعة تسلّلتْ عبر الشط ليلًا.. ألقتْ حبلًا في رقبة النصب وسحبته إلى النهر). ولم يجدوه!؟ (لم يجدوه. ها أنت ترى مجموعة الغوّاصين تنطُّ كالكواسج. لم يجدوا شيئًا سوى يده التي كانت ممتدة إلى الضفّة الأخرى). ربما كُسرتْ عند سقوطه! (ليستْ مكسورة. إنها مقطوعة بآلة حادة). كانت قاعدة النصب المبنيّة من رخامٍ أبيض خالية تمامًا، لم يجرؤْ أحد على الصعود إليها، فيما تبدو الأرض المحيطة بالقاعدة ممتلئة بالجنود. تركتهم خلفي. كنت، بين حينٍ وآخر، أتلفّت، إذ ربما أرى التمثال الكبير، وكنت، في كل مرةٍ، أبصر القاعدة تبرق تحت وهج الشمس الساطعة حتى غيّبني منعطف الشارع الأخير.

وجدتُ السوق خاليًا. والذين رأيتهم.. كانوا يتحدثون عن اختفاء النصب. أكوام من البشر تتهامس دون صوت. عدتُ إلى البيت. قادتني زوجتي إلى زاوية الغرفة. (هل سمعتَ؟ التمثال الكبير). لم تترك لي فرصة لأعقب. (يقولون إنه اختفى). وقتها أدركتُ أنني لم أكن أحلم.. وأن النصب قد اختفى فعلًا.

في الصباح التالي ترددتُ في الخروج حتى الضحى. عند الباب التقيتُ زوجتي: (يقولون إن ثلاثة آخرين قد اختفوا). خرجتُ. كانت القواعد الرخام الثلاث على يمين التمثال الكبير فارغة. بِدَلٍ خضرٍ مبقعة تملأ المكان. هل وجدوا شيئًا؟ (لم يجدوا غير

أيديهم). مقطوعة بعناية. (هل رأيتها)؟ تركته. عدتُ إلى البيت. صباح آخر. اختفت ثلاث أخرى يسار النصب. صباحات عديدة. إختفاءات ليلية متكررة، أيدٍ ثلاث تُستخرج من النهر كل يوم. صباح أخير. الجنود وحدهم يجوبون الشارع. لم يسمحوا لي بالاقتراب. اضطررت للالتفاف في شارعٍ يوصلني بالطرف الآخر للشارع المحاذي للنهر. من بعيد.. رأيتُ النصب القديم وحده واقفًا، ظهره إلى النهر ويده باتجاه المدينة. اتجهت حيث يشير. كنت وحدي في شارع السوق الرئيس عندما وقف بجانبي باص أصفر كبير. امتدتْ يدٌ ممتلئة عبر الباب المفتوح وسحبتني إلى الداخل.

* * *

(ألقاني القدر في طريقه فدلّني)، هكذا بدأ بعد دهر من الصمت كنت أتابعه فيه ناقلًا أحجاره أو جالسًا هناك.. في زاويته الأثيرة يحفر خطوطًا وتواريخ لم أفهم منها شيئًا. (كنتُ أراه يطوف في السوق يوميًا. كانت أياما عصيبة. لا أحد يشتري شيئًا. الكل يبيعون. امتلأت الطرق بالبسطات، بشر يبيعون كل شيء: أغطية، أسرّة من الحديد، زجاجيّات قديمة، أشياء كثيرة نسيناها تظهر مرة أخرى أمام أعيننا جديدة برّاقة. كنت، بعد انتصاف النهار، أترك دكّاني متجوّلًا وسط هذه البسطات، لا

أبتعد كثيرًا، تبقى عيناي معلّقتين بأكياس «الخيش» المرصوفة بباب المحل. التفتُّ مرّةً فوجدته واقفًا يتفحص، بيده، محتويات الأكياس، عدتُ بسرعة طمعًا في بيعه شيئًا، فقد مرّتْ عليّ، وقتها، سبعة أيام لم أكسب فيها فلسًا واحدًا، عدت بسرعة. اشترى الكثير، ودفع بسخاءٍ قلّ نظيره، ولمّا لمحني مشدوهًا همس: لا عليك، سيعوَّضُ كل هذا، المهم أن تعرف كيف تُنفق.. وأين. إن معي الكثير، وهو ليس لي، فأنا، في الحقيقة، مُخوَّل بالإنفاق منه بالطريقة التي حددها لي «السيّد». انتظرني في الغد. انتظرته. أخذ أكثر مما أخذه أمس، ولما أراد أن يدفع لي أوقفته: دعك من هذا الآن. أريدك أن تحدثني عنه. تردد أولًا. نظرَ في عينيّ. جلسَ فوق صفيحة سمن فارغة أحضرتها له. شبكَ أصابعه في حجره وبدأ. كنت أستمع مشدوهًا. بعدها تركني وذهب، ولم أره مرة أخرى. انتظرت. بحثت عنه. ولمّا يئست من رؤيته دوّنت التفاصيل التي حدثني بها: ساحل المدينة الغربي.. الصخرة الكبيرة التي يغيّبها الماء نهارًا وينحسر عنها ليلًا.. ليالٍ عديدة ذرعتُ بها الشاطئ شبرًا شبرا حتى وجدتها.. أقمتُ عندها منتظرًا ليلة النصف من شعبان.. الليلة التي حددها الرجل لوصول زورق لرجالٍ بعمائم خضرٍ.. نزلوا.. تفرقوا في اتجاهات شتى.. بقيت وحدي مع الملاح.. عرضت عليه أن يحملني معه.. صعدتُ.. وبدفعة مجداف واحدة كنّا في عرض البحر. «تعال.. تعال مكاني»، قال لي إنه يريد رؤية النجم، «إنه هناك، أنظر

إليه»، أشار إلى نجم أبيض كبير. تحركتُ لآخذ مكانه، أصبح النجم الأبيض بين كتفي. سبع ليالٍ بأكملها قضيتها معه. كان يُلقي مرساته بمجرد أن يغيب قرص الشمسٍ في فم البحر الواسع.. يُلقيها وينام. في اليوم الأخير اجتزنا مياهًا بيضاء عالية، ظننت أنها ستغرقنا، إلا أنه تبسّمَ قبل أن يقول لي:»لقد وصلنا»).

* * *

هكذا إذًا! (نعم. وصلتُ هناك، ولكن لم ألتقِ الرجل. إنه قدري أن أصل في الأيام الأولى لاعتكافه. كان عليَّ الانتظار سبعة أيام قد أراه بعدها، وقد لا أراه، وكان هذا وقتًا طويلًا، لقد حدد لي مجلس علماء الجزيرة أربعة أيام فقط للبقاء معهم، بعدها عليّ أن أغادر. أدهشتني الجزيرة، إنها فعلًا «خضراء» كما قيل لي، أرضها مفروشة بعشبٍ أخضر باهت، أشجارها.. خضراء باسقة. الغريب أنّي لم أرَ شيخًا واحدًا، كانوا كلهم فتية كهولًا، يعتمون بعمائم خضر، أراها تشع وأنا أبتعد بزورقي. كان عليَّ أن أسيرَ ليلًا وأسكن نهارًا.. هكذا أوصاني أصبحهم وجهاً وأنا أقفز إلى زورقي. «ستجد نجمًا أخضر يقودك. اجعله أمامك. إنه هناك». كان البحر قد أكمل ابتلاع القرص الملتهب. نظرتُ حيث أشار فرأيت نجماً أخضر يتوّهج بشكل غريب. «هل رأيته»؟ نعم. «على بركة الله». ودفعني.. فكنت في عرض البحر. النجم

بين عينيّ. التفت.. كان الشاطئ بعيداً.. وكنت أرى بوضوح عمائمهم الخضر المشعّة).

* * *

(الجنون وحده.. وربّما شيء آخر ألحَّ عليَّ. كانت المرساة بيدي، وهو أمامي.. على صدر الزورق: تذكّر أن تُلقي مرساتك بمجرد أن يأفل نجمك الأخضر.. واختفى. كان النجم الأخضر قد اختفى هو أيضًا. وكنت أنظر إليه، أتابع اختفاءه المتزامن مع لفظ البحر للقرص المتوهج. غاب تماماً. المرساة بيدي. أعدتها إلى بطن الزورق. وضعتُ النجم الأبيض بين عيني.. وبدأت. كان نهارًا رائعًا. ظننتُ أنني وصلتُ بعد أن رأيت زوارق سودًا تمخر البحر أمامي، تتجه إليّ، تُحيطني، أسلحتهم مشرعة نحوي، وعندها فقط ألقيت مرساتي).

كان يقلّب أحجاره القرصية، يقرأ الطلاسم المحفورة عليها، يحفر خطوطًا جديدة على قرصٍ يضعه بحجره. ثمَّ ماذا؟ (ها أنت ترى، إنني أنتظر، أحسبُ الاحتمالات كما علّمني أصبحهم وجهًا، قضيتُ السنين وأنا أحسب، وفي كل عامٍ أكتشف احتمالًا جديدًا. بعدها أضيف رقماً آخر وأبدأ من جديدٍ. أرقامك تقول إنك ستخرج. وإذا أصررتَ على الذهاب إلى هناك تذكّرْ

كل ما حدثتك به).

* * *

إنه المساء.. بداية الأفول لدليلي النجم. سأحتفظ بالمرساة في جوف الزورق. إنها الليلة الخامسة من المساءات السبعة التي حددها الرجل. يوشك نجمي أن يغيب. أتحسس كيس الخبز الناشف. لم يبقَ لي الكثير لآكله. تلتصق المجاديف براحتيّ. مقعدي مسمّر فوق عارضة الخشب الأفقية. قوة غريبة تحلّ في جسدي، تدفعني لأستمر. يوشك نجمي أن يغيب. (تذكّر.. بمجرد أن يأفل النجم، بغير ذلك ستضل طريقك، تذكّر ذلك) . أتذكّر.. وأختار نجمًا آخر قريبًا من الدليل، يقودني، أضعه بين عيني. إنه هناك.. نجم أخضر يقع على خط واحد مع دليلي. حسن. استمر. استمر. يترك التعب جسدك. يفارقك الجوع. تحسس، بلسانك، رطوبة فمك. غاب نجمك. دليلك الجديد يبدو متوهّجًا، يزداد لمعانًا. ادفع. ستصل إلى هناك قبل ليلة. ترى الجزيرة الخضراء. تربط قاربك إلى شاطئها. ترى العمائم المشعة، الفتية الكهول، و ......و«السيّد»، تتمنى أن يكون وصولك بعيدًا عن أيام اعتكافه. تدخل عليه وتراه. لك، هذه الليلة، ذراعان من حديد. تزداد توغّلًا في المساحات الشاسعة المظلمة. ستُعرَض على مجلس العلماء، يحددون لك وقتًا للبقاء، أيامًا.. وربّما

شهورًا، مَنْ يدري! قد تسرح هناك إلى الأبد.. عالم بكر بالنسبة لك، تعيش لذّة اكتشافه. ستحدثهم عن مدينتك، النصب التي اختفتْ في ليالٍ متتالية، الباص الأصفر الكبير الذي حملك، تنقّلك في الدهاليز، الأقبية الرطبة، دورك على المسرح القديم، صعودك، دحرجة جسدك على السلالم، رحلتك الأخيرة إلى القلعة ولقائك الرجل، ستذكره لهم كما طلب منك، (اذكرني عند أصبحهم وجهًا، قل له إنني أنتظر، أعدّ الاحتمالات، أدوّن التواريخ). أستمر. لا أعلم أين أنا. في الليل.. تُصبح الدنيا كلّها بحرًا، تغريك سعته للتوغل فيه، تثير فضولك، وخاصةً أنّ لك جسدًا حديديًا ودليلًا يقودك. استمر. حاول أن تتماسك مع إنك متيقن من حقيقة الصوت الذي سمعته. الدائرة الضوئية تحوم حول زورقك بعد أن خطفتك مرّات عدة. يملأ الصوت أذنيك. دائرة الضوء تضيق حولك. تستقرّ على زورقك. تجد نفسك وسط زوارق سود. تقترب منك. بنادق عديدة تتجه صوبك. يتحرر المجداف من يديك. وعندها فقط تقرر أن تُلقي مرساتك.

نيسان – مايس ١٩٩٧م

الأردن

قصص المجموعة

١	الخروج إلى الداخل	٥
٢	صباحات شاحبة	٢١
٣	ذاكرة من زجاج	٢٩
٤	طائر الرماد	٤١
٥	لعبة الصبر	٥٣
٦	حورية البحر	٦٩
٧	رائحة أخرى للورد	٧٥
٨	ظلال بلا أجساد	٨١
٩	جار الله	٩٣
١٠	صانع التوابيت	٩٩
١١	المعطف	١٠٣
١٢	لصوص	١١٣
١٣	فنارات مظلمة	١١٩

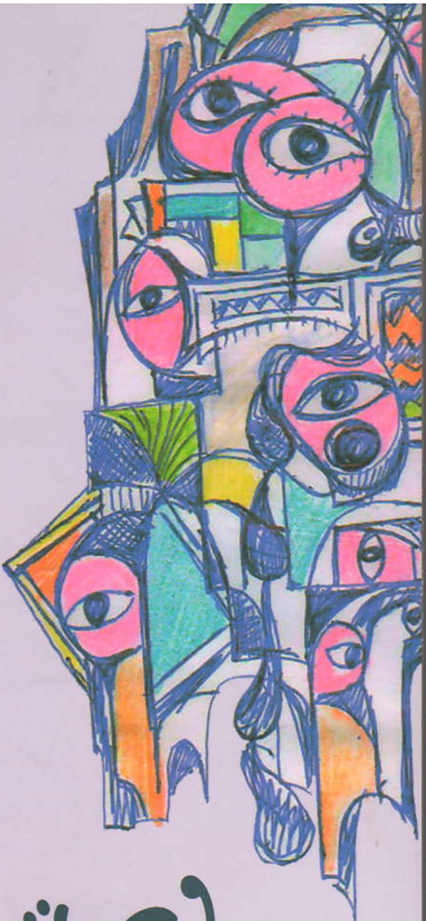

محمد عبد حسن

ولد في البصرة عام ١٩٦٤م.

- حاصل على شهادة البكالوريوس في علوم الهندسة المدنية من جامعة البصرة عام ١٩٨٧
- عضو جماعة البصرة.
- فازت روايته (سليمان الوضّاح) بالجائزة الثانية في مسابقة رابطة الكتاب الأردنيين لغير الأعضاء عام ١٩٩٦ (غير منشورة)

صدر له:

- الطوفان وقصص أخرى (قصص قصيرة) الطبعة الأولى ٢٠٠٢/ دار أزمنة لنشر والتوزيع/ عمان الأردن
- خرائط الشتات (رواية) الطبعة الأولى ٢٠١٤/ دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع / الشارقة ـ بغداد
- أن تنتظر لا شيء (قصص قصيرة جداً) الطبعة الأولى ٢٠١٤/ إصدارات إتحاد الأدباء والكتاب في البصرة

لعبة الصبر

قصص قصيرة

ISBN:993362247-3

9 789933 622473

دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع

اتحاد الادباء والكتاب في البصرة

تصميم الغلاف: نور كيوان